جامعة الدول العربية

معهد الدراسات العربية العالية

محمود شكري الألوسي وآراؤه اللغوية

محاضرات

ألقاها

الأستاذ

محمد بهجة الأثري

(على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية)

١٩٥٨

١٩٥٨

محمود شكري الالوسي

جامعة الدول العربية

معهد الدراسات العربية العالية

محمود شكري الألوسي

وآراؤه اللغوية

محاضرات

ألقاها

الأستاذ

محمد بهجة الأثري

(على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية)

١٩٥٨

١٩٥٨

بسم الله الرحمن الرحيم

موضوع هذه المحاضرات العلامّة السيد محمود شكرى الألوسى وآراؤه اللغوية والأدبية .

والألوسى ركن من أركان النهضة ، فذّ ، متعدّد الجوانب .. جَرَّ عواليَهُ ، وأجرى سوابقه فى نواحى مختلفة من ميادين المعرفة والإصلاح والجهاد ، وكان الفارسَ المجلّى فى العلوم النقلية والعقلية وإماماً فى الدين واللغة والأدب والتاريخ ، جمعَ إلى الذاكرة الجامعة والتطبيقِ الجلدِ الصبورِ عمقَ التفكير واستقلاله وجراءته ، وامتاز بالتحرر وحرارة الإيمان فى سموّ الذات .

ولقد أحب معهد الدراسات العربية العالية أن يخدم القومية العربية الواعية الناهضة المتفتحة لربيع الحياة بتعريف الجيل الصاعد بهذا الرائد من روّادها الأوائل الكبار المخلصين ، تبصيراً له بسيرته العلمية وآدابه النفسية وجهاده الواضح المعالم فى أكثر من جانب من جوانب النهضة الحديثة .. فدعانى مشكوراً إلى الوفاء بهذا المطلب ، ورادف دعوته إياى ثلاث مرات ، فاعترضتْ تلبيتى — مرتين — عِقاب قطعت علىّ السبيل ، وشدّتنى إلى موضعى عوامل من صنع الأخيلة الجامحة ضربت علىّ السدود والقيود فلم أستطع منها إفلاتاً .. كأن يد القدرة الخفية كانت من وراء ذلك ، تدافع شخوصى إليكم إلى هذا اليوم السعيد الذى برزت فيه القوة العربية المعاصرة بروزها التاريخى ، وتحقق فيه أمل من الآمال التى نشدها هذا الرائد — روّح الله روحه — لأمته ، لتقترنَ به ذكراه ، ويذكر جهاده ، ويمجد اسمه . وماأعجب تصرفَ الأقدار !

وسنرى أن الألوسى قمين بما تهيأ له من الحفاوة بســـيرته ، فلقد كان والسلطانُ فى بلاد العرب لغير العرب من أوائل علماء الأمة الذين أعملوا أقلامهم فى بعث هذه القومية المؤمنة الرحيمة ، وعملوا على إحياء مقوماتها ومشخّصاتها الأصيلة من دين وأدب ولغة وتاريخ وحضارة ، وأشعروا شبان العرب عزة العرب ، وحببوا إليهم مثلهم الإنسانية العليا فى الحياة .

وهذا الجيل العربى قمين أن يتعرف السير العاملة الناصبة التى شقت له طريق المجد ، وعبدت عقابه ، وذللت صعابه ، وأدنته من الغاية وكانت منه فى مناط النجم . وماأجدره بأن يستن سنة أصحابها فى السهر والطلب والنضال ، ويقتفى آثارهم فى مدارجه إلى الرفعة ، واصلاً جهاده بجهادهم ، وأواصره بأواصرهم ، ذاكراً أن صنائع حملة السيوف والساسة الأحرار إنما هى ثمار أقلام هؤلاء المفكرين المصلحين ، والألوسى من طلائعهم المشرقة فى هذا العصر الحديث .

محمد بهجة الأثرى

القاهرة فى ١٦ مارت ١٩٥٨

عصره وبيأته العامة

ولد السيد محمود شكرى الألوسى ببغداد فى ١٩ شهر رمضان ١٢٧٣هـ (١٢ أيار ١٨٥٦ م)، وتوفى فيها يوم الخميس ٤ شوال ١٣٤٢ هـ (٨ أيار ١٩٢٤م).

فهو قد عاش تسعاً وستين سنة، قضى معظمها تحت راية الخلافة العثمانية حتى شهد زوالها، وكان حائراً بين الرضى بها والكره لها. ومن أسباب رضاه بها أنها كانت فى هذا الشرق طوالَ خمسة قرون موئل المسلمين، وحامية الإسلام والحصن المنيع الذى قام بوجه الغرب المتحفز للاستيلاء على دياره وإخضاعها لسلطانه الذى قد يتعذّر الخلاص منه إذا هى وقعت فى قبضته. فإذا زالت هذه الخلافة، يزول معها الوجود السياسى للإسلام، ويحدث بعدها فراغ فى الحياة الإسلامية يُهدّدُ بملئه بحياة أخرى مكانها أو يعرّضها لمصاير منكرة لاطاقة لأحد بدفعها، أو هكذا كان يخيّلُ إليه.

وأما باعثه على كرهها، فهو الفساد الذى أصاب حياة الدولة فى أخريات أيامها وكان قد استشرى، وجاوز المدى، وبلغ الحدّ الذى جزع منه الأحرار، وعلاهم القنوط من إصلاحه. ولم تغن معه حيلة ولا أجدى اجتهاد.

ولا ريب أن حزم الحازم يضيع فى مثل هذين الحالين مهما ملك الإنسان صوابه ورشده، ولا تكون فى أحدهما خيرة لمختار.

ولست أشك فى أن الألوسى لو ملك الخيار، لاختار بقاء دولة الخلافة مع صلاح الأحوال التى يرجى فيها للأمة العربية من المخرج ما لا يرجى حين تقع بلاد العرب فى مخالب «الاستعمار» الغربى، وتتورط فى شُرُكه التى يتعذر منها الخلاص إلا بمعجزة. ولكنّ صلاح الأحوال، لم يكن مما تناله القدرة بعد أن تجمعت على الدولة كل أسباب الزوال المحتوم.

أما بقية عمره، وهى ثمانية أعوام من الشيخوخة المريضة، فقد عاشها

فى سلطان الاحتلال البريطانى للعراق ، كارهاً له برماً به غاضباً عليه ، لا يرى فى ظواهر طبيعته وبواطنها ما يلائم منطق العقل أو يغرى بقبوله ؛ لأنه سلطان غريب ، فرض نفسه بالحديد والنار ، وليس له بأهل البلاد صلة من صلات الدين أو الجنس أو اللغة أو المصالح والغايات العليا المشتركة فى أمر جامع من أمور الحياة .

ومع أن هذا السلطان قد اصطنع مجاملته فوقره وتحبب إليه وحرص على رضاه ، لم تكن نفسه لتلتقى معه على شىء . وقد أهدى إليه الذهبَ ، وبه فقر إليه وخصاصة ، فاستغنى عنه ورده وزجر حامله إليه ؛ وأحدث له المنصب الرفيع الذى كان يتهافت على أصغر منه الكبراء ، وهو منصب قاضى القضاة فرفضه ، لأنه شَرَكٌ يستدرجه إلى تعاونه معه ، وينطوى ذلك على الإقرار بشرعية هذا السلطان على البلاد ، وهو شىء لا يستقيم مع عقيدته وفكره وهدفه ، وقد كان يشبهه بالنار ويشبه أعوانه بالمكْواة التى تحمى بها . ومن هنا قاطع أخاه الأكبر حين خالف مشورته فقبل وزارة العدل فى عهد الانتداب ، وأقام على مقاطعته حتى فرّق بينهما الموت . ورضى لنفسه ما كان رضيه لها من قبل : من شرف العلم وحده ، فمضى فى سبيله إلى الغاية التى توجه إليها منذ طفولته ، وانقطع انقطاعاً تاماً للتدريس والتأليف ، وعكف على التعبد وحفظ القرآن وتدارسه ، ضارباً أروع أمثلة الزهد والكبر على السلطان ومغرياته ، مجتزئاً بالبرْض من العد ، ومؤثراً جوهر الباقية عل عرض الفانية .

* * *

وافق زمن الألوسى أيام هرم دولة الخلافة العثمانية . لكن هرمها كان أشبه فى ظواهره بالشباب ، لأنه تميز بشىء من روح الحياة الجديدة تدب إليه . والهرم كما نعلم مرض من الأمراض المزمنة التى لا يمكن دواؤها وارتفاعها ، لكنه كما لاحظ ابن خلدون ربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أنه قد ارتفع

عنها ، ويومض ذبالها إيماض الخمود ، كما قد يقع فى الذبال المشتعل ، فإنه عند مقاربة انطفائه يومض إيماضة توهم أنها اشتعال وهى انطفاء .

وكان باعث هذا الرونق من الشباب فى حياة الدولة لهذا العهد ، شعورها بوهنها وتخلفها عن دول الغرب المندفعة فى سبل النهضة الشاملة ، واضطرارها إلى الدفاع عن نفسها وحماية ممالكها المترامية الأطراف ، وأن عليها أن تنتقل انتقالا كاملا من حالة القرون الوسطى إلى حالة دولة جديدة لها كلُّ ما لدول الغرب من قوة ومن تنظيم عسكرى وادارى ومالى ، ومن علم وفن وعمران وحضارة ، لتكون دولة مرهوبة الجانب كما كانت بالأمس البعيد ، أيام اندفعت جحافلها إلى قلب أوروبة فقرعت أسوار (فينّة) ، ونشرت الرعب فى الغرب ، حتى خيف أن تأتى عليه كله ، فكان ما كان من تنادى باباواته وملوكه للثار ، وما استتبع ذلك من ظهور « المسألة الشرقية » وما تنطوى عليه من قرار القضاء على الخلافة العثمانية .

وكانت بداية الاقتباس للنظم الغربية ، أو استلهامها فى أساليب الحكم فى أواخر عهد السلطان عبد المجيد (١٨١٩ — ١٨٦١) ، فأعلن « التنظيمات الخيرية فى سنة ١٨٥٦ م ووافق ذلك مولد الألوسى .

فالألوسى إذن قد ولد مع مولد هذه الحركة ، ورافقها ، وشهد آثارها فى موطنه ، كما شهد كل مارافقها من أحوال وملابسات سياسية واجتماعية وفكرية ، وهى تتمثل فيما نرى فى عدّة معالم كبرى ، أظهرها فى الحياة السياسية للدولة هذا الحكمُ المطلق ، وهو نظام أرسيت الخلافة العثمانية على قواعده منذ كانت دولة عسكرية خالصة تستعد للغزو والفتح ، وتقضى أحوالها الخاصة بهذا النوع من أنظمة الحكم ، وتوارثه السلاطين خلفاً عن سلف ، واستمرؤوه جميعاً ، ولم يعقل الأواخر بواعث ما أراد الأوائل من ذلك ، أو هم لم يشاؤوا أن يفكروا فيه ويعقلوه ، فمضوا فيه وأحسوا من التفرد

بالسلطان — من غير أن يكون للشعب رأى أو مشورة فيما يعقد من أمره أو يحل — كأنّ جزءاً إلهياً قد حلّ فيهم منه ، فاستعلوا على الشعب ، ولم يبالوا إرادته ، وهى من ارادة الله حين يبغى الشعب الخير لنفسه غير باغ ولا ظالم .

وقد بلغ هذا الشعور ذروته عند السلطان عبد الحميد الذى دام حكمه ثلاثاً وثلاثين سنة : تطورت فيها الدنيا وعقلية الشعوب التابعة له تطوراً لا مكانَ للحكم الفردى المطلق فيه ، ولم يتزحزح عما ورثه واعتقده وتعوده ، وتفاوتَ تفكيرهم وتفكيره فيما يريدون ويريد تفاوتاً شرّقوا فيه وغرّبَ . فلم يَلْتَقِ بهم ولم يلتقوا به إلّا فى أواخر سنيه حين أعلن الدستور فى سنة ١٩٠٨ مكرهاً لا بطلا .

هذا الحكم الفردى المطلق أنتج أسوأ الآثار فى حياة الدولة العامة وحياة الشعوب المحكومة لها فى المملكة كلها .

ومن سيئاته المركزيةُ الشديدة المفرطة فى الإدارة ، وهو نظام اقتبسته الدولة من النظم الفرنسية ، فى هذا العهد ، لأنه يلائم الطبيعة الاستبدادية ، وغالت فى تطبيقة ، وتشددت فيه تشدداً لا هوادة فيه ، أثر تأثيراً سيئاً جداً فى هذه الحركة الإصلاحية وفى تعويق حالة التسابق مع الغرب فى مضمار النهضة الشاملة ، وقد أدرك مدحت باشا أبو الدستور وبطله (وكان قد تولى ولايتى بغداد وسورية) الأضرارَ الناجمة عنها ، وشرحَ هذه الأضرار فى تقاريره ، وطالب بالإقلاع عن هذا النظام إلى نوع من « اللامركزية » تصلح عليه الأحوال وتطّرد الأعمال ، فلم يلتفت إليه أحد ، ومضت السلطة المركزية فى استنبول فى تمسكها به وفى تشددها بهذا التمسك سنة بعد سنة ، ودام ذلك إلى ما بعد حلول عهد الدستور وأمتد إلى نشوب الحرب العالمية الأولى . وكان للمركزية واللامركزية فى هذا العهد شأن من أكبر الشؤون فى سياسة الدولة العامة فى ممالكها كلها عامة ، وفى البلاد العربية بنوع خاص .

وتميزت سياسة الدولة لهذا العهد بحركة الجامعة الإسلامية ، وكانت الدولة العثمانية طوال عهودها السابقة ، وهى دولة عسكرية إسلامية صوفية ، تتبع فى ذلك سياسة طبيعيّة هادئة تنسجم مع مظهر الخلافة وديانة غالب المواطنين ولا تغفل رعاية حقوق غيرهم . . لكن لما تجسم للدولة شبح « المسألة الشرقية » فى هذا العهد ، واشتد بأس الغرب عليها بإنزاله الكارثة بعد الكارثة فيها ، عمدت إلى استنفار الرأى الإسلامى العام ، فظهرت هذه الحركة وكان المسلمون فى كل مكان يتلهفون إلى الظفر بوسيلة تعينهم على أن يستعيدوا سلطانهم على مصاير أمورهم ، فاستجابوا لها بحماسة فائقة ، والتمس الإصلاحيون الوسيلة فى الشعور بالوحدة الدينية فأيدوها ، وسعوا لها طوال القرن التاسع عشر .

ثم بلغت هذه الحركة ذروتها فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، إذ اشتد تناغيه بها ، وعظم توكيده عليها ، انسياقاً مع شدة إحساسه بالخطر الأوربى فالتفت حوله بيوتات العلم فى مملكته ، وقدم المسلمون فى أنحاء الأرض كل الدلائل الحسية على تأييد سياسته وشد أزره فى دعوته ، حتى بدت حركة الجامعة الإسلامية فى مظهر من قوة الشعور لم يسبق له مثيل من عصر الأيوبيين الذين نشطوا لمناضلة الصليبيين المعتدين وألبوا عليهم قوى الشرق الأدنى كله طوال قرنين إلى أن أجلوا آخر جندى من جنودهم الخُمس من ديار الإسلام .

لكن السلطان عبد الحميد ، وقد نجحت مقدمات سياسته نجاحاً تاماً إذ قدر أن يوقظ الشعور بالوحدة الدينية فى كل مكان ، لم يستطع أن يبلغ منها نتائجها العملية المثمرة ، لأنه لم يحسن الملاءمة بين سياستها ووسائلها وبين القوى الجديدة التى كانت تتهدده . ولذلك أسباب كثيرة يرجع بعضها إلى عقليته التى يتناول بها الأشياء ، ويرجع بعض آخر منها إلى طريقته فى الحكم وتوجيه دفة السياسة .

كان أسلاف السلطان عبد الحميد يعطفون عطفاً ظاهراً على الصوفية

وأشباه الفقهاء الطالبين للدنيا بالدين ، ليستصدروا منهم فتاوى بما يوافق أهواءهم فى التحليل والتحريم وقتل الأبرياء بمن يغضبون عليهم ، وكان هؤلاء كما قال مؤلف « أبو الفاروق » من جملة الأسباب فى تداعى السلطنة ، وهم كتائب من المداح جاء كثير منهم من فارس يستوكفون الأكف،فاستأثروا بالزوايا والتكايا ، وانهالت عليهم عطايا السلاطين . .

فترسم عبد الحميد خطاهم ، وجنح إلى أخلاف هؤلاء فى توطيد مملكته ، فقرب مشايخ الطرق ، وأغدق عليهم العطايا من أموال الأوقاف ، وبنى لهم التكايا والزوايا فى كل مدينة وقرية ، وهى عشوش للفساد والكسل والبطالة، ليكون روادها عماده فى السيطرة وبسط النفوذ . وراجت عليه خزعبلات الباقعة محمد بن حسن وادى المعروف بأبى الهدى الصيادى الرفاعى ، وهو شيخ طريقة مداح ودقاق مزهر من قرية خان شيخون من قرى حلب ، فقلده مشيخة المشايخ فى المملكة العثمانية ومنحه ثقته الكبرى ، ليجمع الناس حول عرشه ويروج لسياسة الجامعة الإسلامية التى يتناغى بها لتخويف الغرب على ما تخيله إليه سماديره ، فأفاد الخان شيخونى من ذلك مكانته الرفيعة الفذة فى مملكته الواسعة ، ولم ينفع سياسة الجامعة الإسلامية بشىء ، إن لم يكن أضرها أبلغ الاضرار ، وأفسدها وأفسد معها الحياة الدينية بتشجيعه المتصوفة والدراويش والمتشيخين ومطاردته العلماء الأحرار وتنكيله بمن لا يصانعون السلطان فى دينهم أو يكون فى آرائهم خطر متخيَّل يهدد كيانه القائم على هذا الفساد ، إلى أن عصفت النقمة بهذا العهد ورجاله ، فلم يبق لسياسة الجامعة الإسلامية مكان فى أذهان المتغلبين .

إنما تناغى هؤلاء بالطورانية ، وقد ظهرت عندهم كأعنف ما تكون الدعوات الجديدة عنفاً ، وحلَّ محل عبد الحميد وحاشيته متزعمون ومغامرون كثيرون توثبوا إلى المناصب الرفيعة ، وكان فيهم الوضيع والفاسد ، فنزعوا إلى العسف والإثراء من طريق السياسة نزوعاً جعل الناس يتمنون عهد

عبد الحميد لو كان ماضٍ يعود ، وخلف الفردَ المستبدَّ جماعات تتجاذب بينها مذاهب الاستبداد والبطش حتى قال فى هذا حافظ إبراهيم :

كان « عبدالحميد » بالأمس فرداً فغدا اليومَ ألفُ « عبد الحميد »

وفى هـــذا العهد تخالفت الأمة ، تبعاً لتعدد الأحزاب واختلافها فى الأهواء السياسية ، اختلافَ التعادى ، ووقفت جماعات إلى جانب « الائتلافيين » ، وهم يدعون إلى سياسة عثمانية جامعة ، وكان أمر هؤلاء إلى الانحلال ، وأيدت جماعات أخرى « الاتحاديين » وسياسةُ هؤلاء تتريكُ العناصر وإبقاء اللغة التركية لغة التعليم لشعوب الخلافة كلها ، فيما عدا مدارس الأوقاف الدينيّة التى تركوها على حالها مثلاً خاصاً لعلوم اللغة العربية والعلوم الإسلامية . وإلى هؤلاء كان الأمر فى أيام الدولة الأخيرة ، فنفروا شعوب الخلافة ، وأعدوها إعداداً كاملاً للانفصال .

وكان من معالم الحياة فى هذا العصر انتشارُ حالة من القلق والاضطراب فى جميع أنحاء المملكة مالها من قرار ، أفسدت الحياة العامة فى جملة ما أفسدها من أوضاع الدولة ، وأضرت الحكام والرعية : بعضها كان من فساد سياسة القصر وعبث الحاشية وسوء تصرف الولاة والعمال ، وبعض آخر كان من الفساد الذى يجرى فى اقتصاديات الدولة فى الجباية ووجوه الإنفاق مما ستأتى الإشارة إلى بعضه ، ومنها ما كان من الفساد الذى يجرى فى خلائق الشعوب المحكومة ، وهى عناصر متباينة الأجناس والأديان والمذاهب منتشرة ما بين جون البنادقة إلى سواحل الأحساء واليمن ، ومن جبال الكاربات إلى أقصى سواحل إفريقية الشمالية من جهة الغرب ، كانت تفسر الحوادث طبق آمالها وأمانيها المتضادة وتريدها أن تجرى على حسب أهوائها المتعارضة ، ومعظمها لم تكن تشعر شعور الولاء للدولة ولا تدين لها بالطاعة أو الحب ، إنما كان هواها مع دول الغرب وأن تنفصل عن الدولة بمساعدات الغرب المادية

الولاء

والمعنوية ، وظالماً دفعتها دول الغرب إلى الثورة على الدولة ، فكانت مصدراً دائماً للقلق والاضطراب وفساد الحياة العـــامة فى جميع نواحيهـا فى المملكة كلِّها .

وكانت دول الغرب تفعل ذلك فى هذا العهد لتتدخل فى شؤون الدولة الداخلية باسم حماية الأقليات الدينية ، فتملى عليها إرادةً ، أو تنال منها امتيازات جديدة ، أو تجرها إلى حرب معها لتقتطع جزءاً من مملكتها . وكانت خسارة الدولة فى كل حرب حاربتها فى القرن التاسع عشر باهظة فى المال والرجال والبلاد ، وكل ذلك كان مصادر لقلق الحالة الاقتصادية والاجتماعية ، وعوامل لاضطراب الأحوال السياسية والإدارية فى المملكة انتهت بها إلى مثل ما كان من فساد الحياة العامة إبان ضعف الخلافة العباسية ببغداد ، ومن أكبر مظاهر هذا الاضطراب أن ارتقى الشر إلى الخلفاء أنفسهم ، وقد استخلف فى هذا العهد القصير خمسة خلفاء دمر الشر على ثلاثة منهم نخلعوا أولا ، ولم تبرأ حوادث خلعهم من أثر الدول الأوروبية ، و « فى كل وأد أثر من ثعلبة » ، ثم قُتل أثنان منهم بعد قليل من أيام خلعهما فأشيع أنهما ماتا موتاً طبيعياً ، كما قُتل ولى للعهد كان مرجواً لأمته ، وبويع خليفة أوهنت العزلة الطويلة وإدمان الخمر أعصابه وذهنه . كذلك كان من مظاهره كثرة تبديل الوزارات ، وتغيير ولاة الأقاليم ، والفتن الحزبية ، والاغتيالات السياسية ، وتدخل الجيش فى قضايا السياسة وإدخالها فى رقه بعد رق الاستبداد .

* * *

هذه الصورة العامة للدولة قد انعكست بخيرها وشرها وعجرها وبُجرها على الحياة العراقية ، فظهرت فيها ألوان من آثارها .

وكان العراق حين استيلاء العثمانيين عليه قد ورث الفساد كله من عصور المغول ومن الإمارات العجمية ، ومما تركته حروب الترك والفرس على صعيده

من شرور لا تزال جذورها عميقة فى البلاد ، فطغى الخراب على حواضره وأريافه ، ورجع أهلوه إلى حالة محزنة من البداوة والجهل وشظف العيش ، وزاد هذا الفساد تفاقماً حين ترك العثمانيون أمره إلى سلطان هؤلاء المماليك وعبث الينيجرية والهايتا والباشى بوزوق(١) بأوضاعه . وقد دام ذلك إلى أن شرعت الدولة فى تنفيذ ما قررته من إصلاح مرافق الحياة فى المملكة كلها على قدر ما تبلغ من جهد وما تملك من طاقة ، ففتحت فيه بعد هذا العهد عهداً جديداً تميز بشىء من ملامح الحضارة الجديدة وبشىء من الاستقرار والتطور. ولكنها مع ذلك لم تستطع أن ترتفع به خلال ستين عاماً إلى مستوى مرموق . ولذلك أسباب متعددة وملابسات كثيرة يرجع بعضها إلى الأحوال القاسية التى غشيت البلاد فى العصور الطوال فأحالت الطبائع وتركت آثاراً عميقة فى الأفكار

---

(١) الينيجرية (الانكشارية فى الاصطلاح المصرى) : تعبير عسكرى تركى كان يطلق على الجند النظامى المستحدث أيام الإصلاح ، ثم اختل نظامهم وفسدوا فساداً لا سبيل إلى إصلاحه إلا بالقضاء عليهم .

وأما الهايتا (أو الهايطة) فتعبير عسكرى آخر كان يطلق على بعض أصناف الجند الذين يرابطون فى الثغور ، وكانوا (أى المرابطون) فى القديم ثلاثة أصناف يقال لها « دلى » و « كويللي » و « بشلى » ، ثم أضيف إليهم « الوند » و « الهايتا » فصاروا خمسة أقسام وكان الهايتا مشهورين بالجراءة فى غاراتهم على العدو ، فكانت لهم خدمات للدولة العثمانية جليلة جداً فى هذا الشأن . ثم اختل نظامهم كالينيجرية وسلكوا مسلك الشقاة ، فسقطت قيمتهم ، وصار تعبير الهايتا علماً على من لا يعرفون الواجب . وقد ذكر علماء الأتراك فى لفظ الهايتا ما يشير إلى أصل عربى حرف عنه وهو « الحيدود » وجمعه « الحياديد » ، أو هو منقول من اللفظ المجرى « هايدوق » وهو اللص وقاطع الطريق والشقى باللغة المجرية . وقيل غير ذلك .

وأما باشى بوزوق فاصطلاح عسكرى تركى ثالث يراد به الجند المتطوع الذى ينضم إلى الجيش النظامى عند نشوب الحرب ، ويستخدمون مساعدين للقوة العسكرية مشاة وركباناً تابعين لقيادة خاصة مستقلة : وكان هذا التعبير يطلق أيضاً على الشذاذ الذين يدخلون استنبول ممن لا مسكن لهم ولا وطن ، ثم صار يطلق على جميع الطبقات غير العسكريين ، ودخلت اللفظة اللغة العراقية العامية فيقال للعامى « باش بزق » ولا تزال مستعملة فى بغداد وفى أنحاء عراقية أخرى .

وفى أساليب المعيشة وأكثرها يرجع إلى جملة ما وصفنا من أحوال الدولة .

وقد تميز هذا العهد فى العراق بكثرة تبديل ولاته . وكان أكثر الذين يعينون له جهلاء بأحواله وبلغته . فلم يكونوا يجدون من الزمن ما يبصرهم به ، بل قد تكون بهم حاجة إلى معرفة أحوال أعوانهم من الموظفين فلا يكادون يتعرفونها حتى ينقلوا إلى ولايات وأقاليم أخرى . وبذلك فقد الاستقرار ، وقل الإنتاج وكان قليله ضعيفا .

وكانت عدة من تولوا ولاية العراق خلال الأعوام الستين المذكورة ثلاثين والياً ، بل ستين إذا عددنا الوكلاء الذين يخلفونهم من كبار الموظفين المقيمين ريثما يقدم الولاة الجدد من استنبول . وقد تراوحت مدد هؤلاء الولاة فى مناصبهم من عدة أشهر إلى ثلاث سنين ، وقل من امتدت أيامه خمس سنين أو ستاً ، وكانوا إلى ذلك أنماطاً من الرجال متفاوتين فى الثقافة والمعرفة وأسلوب الحكم ، لم يعدوا إعداداً خاصاً للإدارة ، وكان بينهم الأمى والسكير والمجاهر بالارتشاء وكثير منهم كانوا من قادة الجند ، وربما وجد فيهم الأديب والمهندس والمتصوف والمتفقه ، وندر الوالى الإدارى الموهوب .

وإذا استثنينا من هؤلاء الثلاثين الأصلاء أربعة أو خمسة استطاعوا أن يخلفوا أثراً مذكوراً فى العراق ، نجد الفذ الذى يتقدمهم جميعاً رجلا واحداً ليس غير ، هو مدحت باشا ـ أبو الدستور وبطله ـ الذى تولى ولاية بغداد من ١٨ المحرم ١٢٨٦ ﻫ (١٨٦٩ م) إلى شهر ربيع الأول ١٢٨٩ ﻫ (١٨٧٢ م) فأقام فى هذه السنوات الثلاث أصول المدنية الحديثة ، وتسنى له أن ينجز من المنشآت والأعمال ما لم يتسن مثله للولاة كلهم مجتمعين فى العصر كله .

على أن هذا التجديد مهما يكن من أمره ومن تناوله مرافق الدولة ومرافق الناس فى بطء ، فلا ننكر أنه أجدى على العراق بعض ما أجدى من خير ، لاشك

فى هذا ، وأنه كان تمهيداً لم يكن منه بد لرقى أكبر منه ينتظره فى مؤتنف أيامه.

ففى هذا العهد شهد العراق لأول مرة فى تاريخه جيشاً نظاميا يؤلف على طراز الجيوش الأوروبية فى نظامه ووسائله وعدده ، ويخلف الينيجرية والهايتا ، فتستقر الأحوال فى الجملة ، ولا سيما فى الحواضر ، وشهد كذلك إدارة جديدة تجنح إلى التنظيم ، وتنصرف إلى بعث روح الاستقرار فى المدن والأرياف وبين القبائل المتوطنة والمترحلة ، وتجدّ فى إخماد الفتن وإطفاء الثورات وإخضاع العصاة المتمردين على السلطان، وتوزع الأرضين الأميرية على الأهلين بأثمان بخسة لازدراعها وإعمارها ، وتشق الطرق ، وتكرى الأنهار ، وتُعنى بعض العناية بإقامة السدود لتنظيم الإرواء أو لدرء عوادى الفيضانات عن المدن ، وتتجه إلى سن قوانين الأراضى والأملاك لصيانة الملكية ، وتهتم بإصلاح النظام المالى وتنسيق جباية الأعشار والضرائب والمكوس ، وتقيم المبانى الضخمة لدواوين الإدارة ومرافق التعليم والصناعة وغيرها .

ويذكر الألوسى فى (أخبار بغداد) جملة ما أنشأته الدولة ببغداد من مرافق لعهده ، لا نستغنى عن إيرادها لتوضيح الحال ، فهو يقول: « ومن أبنية البلدة المنتظمة :دار الحكومة ، ودائرة المشيرية ، وقشلة الرجال والمدفعيين ، ومكتب الصنائع ، ومطبعة الولاية ، والمكتب الإعدادى العسكرى ، والمكتب الرشدى العسكرى ، والملكى ، ومحل دائرة البلدية الدائرة الأولى ، ودائرة الرديف ، ودائرة الرسومات ، ودار المحكمة الشرعية ، ودائرة الأعمال العسكرية . ودائرة عمل الخبز العسكرى ، ودار الشفاء العسكرى ، ودار الشفاء للغرباء ، وما اتصل بها من دار الشفاء لداء الكلب ، ودائرة تلقيح الجدرى ، ودار المجانين ، ودائرة الفرسان العسكر ، ودار المعلمين ، ودائرة البلدية الثالثة ودائرة العسكر البحرى ، والتلغرافخانة ، ودائرة الرزى ، والديون العمومية ، والبانق العثمانى ، ومحكمة التجارة ، ودائرة البلدية الثانية ، ودائرة النسج ،

ومعمل الدقيق ، ومسلحة ، وطلنبة المـاء ، ومعمل الثلج ، ودار البارود ، ودائرة محجة الحديد » .

وذكر فى مبحث الصناعات العراقية أن « للعسكر المنصور آلة لنسيج ألبستهم ، وآلة لدباغ الجلود » وأن طلاب مدرسة الصناعة صاروا ينسجون أقمشة لطيفة قاربت أنسجة الافرنج ، وينتجون صناعات أخرى حرية بالثناء »

وفى مبحث تجارة العراق يذكر استخدام السفن التجارية فى نقل بضائع التجار بين بغداد والبصرة وأن منها ما هو للدولة وعدتها أربع بواخر مع كل باخرة دوبة أى جنيبة ، ومنها ما هو لبعض الشركات الانكليزية ، ونحو هذا من مرافق ضئيلة ولكنها متعددة الأنواع .

ومن كل هذا تتبين جملة ما أقامته الدولة فى العراق لهذا العهد من محدثات الإدارة والتعليم والقضاء والصحة والمواصلات والصناعة والتجارة ، مما كانت له آثار واضحة فى الحياة العامة وإن لم تبلغ بها درجة ملحوظة من الارتقاء .

ووصف لنـا الألوسى كذلك ، فى هذا الكتاب ، بعض ملامح المجتمع العراقى ، فذكر عناصره ولغاته وأديانه ومذاهبه وما اصطلح الناس عليه أو اختلفوا فيه لعهده . وهو كما رآه وتمثله أجدى فى تصوير ما نريد تصويره من بيأته .

فـ « سكان بغداد ونواحيها ـ لعهده ـ أكثرهم من قبائل العرب المحافظين على أنسابهم ، وقسم منهم أكراد وأتراك ، وفى كربلاء والنجف وسامراء وغيرها من العتبات كثير من الإيرانيين المتعربين وغير المتعربين .. وينقسمون ـ بالنظر إلى البداوة والحضر ـ إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول أهل الحضر ، وهم سكان المدن ، والمترفون والأعيان منهم مستخدمون فى خدمات الدولة ومنهم أصحاب عقار ومزارع وبساتين وتجارة . وأما عوامهم ، فمعايشهم من العمل والصناعات كالبناء والتجارة والملاحة والحدادة ونحو ذلك ، وهؤلاء

قليلو الانصاف كثيرو الغش ، ولا سيما اليهود ، فإن غالب المفاسد والخبائث منهم ، حتى دنسوا وجه بغداد » .

القسم الثانى سكنة البوادى « والأرياف » . . . والغالب على طبائعهم الخشونة والجفاء والشجاعة والكرم والغيرة وشرف النفس . ومدار معايشهم الفلاحة والزراعة وتربية المواشى ، ومساكنهم بيوت الشعر والوبر والزرابى من القصب وهى الصرائف ، ومنهم من يتخذ البيوت من الطين والطوف ، وهم أهل الريف » .

« القسم الثالث البدو الصرف ، البعيدون عن الأرياف ، المتنقلون من محل إلى محل ، مثل قبائل شمر وعنزة ، وهؤلاء إلى اليوم لم يذوقوا لذة اكتساب المعيشة على الوجه المشروع كالزراعة والفلاحة ، بل دأبهم الغارات ونهب الأموال وقطع السبل » .

« واللغة العامة فى بغداد وما جاورها وعند سكنة البوادى هى اللغة العربية العامية . ومن أهل بغداد من يتكلم بالتركية ، ومنهم من يتكلم بالفارسية ولاسيما سكنة العتبات ومشاهد أئمة أهل البيت ، ومنهم من يتكلم بالكردية ، ومن اليهود من يتكلم بالعبرانية ، ومن النصارى من يتكلم بالسريانية ونحوها . ومن يتكلم بالعربية من سكنة هذه البلاد ، مختلفون فى اللهجة » .

« وسكان العراق مسلمون ويهود ونصارى ، والغالب المسلمون . والمسلمون منهم أهل سنة ، ومنهم شيعة . وأهل السنة مختلفون فى المذهب والمشرب . فمنهم من يقلد مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وهم الأكثر فى هذا العصر ، لكون هذا المذهب مدار الأحكام وهو القدوة فى الحلال والحرام ، ومنهم على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وهم أقل من الحنفية بكثير ، وأقل منهم الحنابلة ، وغالبهم يوافقون فى الأصول والاعتقاد أبا الحسن الأشعرى ، والقليل يوافقون الماتريدى ، والخلاف بين الفريقين لفظى كما

فصل فى علم الكلام . ومنهم أفراد يوافقون ما كان عليه السلف من أهل الصدر الأول ، وهو : وصف الله عز اسمه بما وصف به نفسه ، لا يؤولون المتشابه ؛ ولا يجوزون الاستعانة بغير الله ، ولا يثبتون الوسائط بينهم وبين الله ، إلى غير ذلك مما ملئت منه كتب الاعتقاد .

وأما الشيعة ، فهم فرق كثيرة مفصلة فى غير هذا الموضع ، والموجودون منهم فى العراق الإمامية الاثنا عشرية الأصولية ، والكشفية وهم يحملون النصوص على غير ظواهرها ، وبين الفرقتين وحشة ونفرة ... وبين أهل السنة وبينهم نفرة عظيمة ، والمناظرة بين الفريقين قائمة على ساقها » .

« وأما اليهود ، فهم كثيرون فى بلاد العراق ، ولاسيما فى بغداد ، ففيها منهم زهاء مئة ألف نسمة ، ولهم محال مختصة بهم وأسواق تشتمل عليهم دون غيرهم ، وقلما تسلم منهم حرفة ، يجدون فى أمر المعاش . ولهم عدة بيع ومعابد ومكاتب . والدولة لما اعتنت بشأنهم خرجوا عن دائرة الآداب مع المسلمين ، وقلما توجد مفسدة إلا هم أصلها وعلى مكرهم قام أساسها . . . »

« وأما النصارى ، فهم غير قليلين فى بغداد ونواحيها ، وفى بغداد منهم الكلدانى والسريانى والأرمنى ، ولهم عدة كنائس ومدارس ، وفيهم أهل فضل وكمال وعقل وأدب وحياء وصدق ووفاء وحسن معاملة مع المسلمين ، ومنهم جماعة فى مناصب الدولة ومراتبها » (١)

وأما الحياة الثقافية ، فقد تميزت فى هذا العهد بالعراق بأن جرت فى مجريين مختلفين ، وكان مجراها فى العهود السابقة واحداً .

المجرى الأول هو مجرى الثقافة الحديثة الذى قضت بإحداثه طبيعة العصر وانتقالُ الدولة من حالة القرون الوسطى إلى حالة دولة جديدة على ما قدمنا . وهى يتفرع إلى فرعين : فرع عسكرى ، وآخر مدنى ويقال له « ملكى » ،

---

(١) الألوسى : تاريخ بغداد .

وكان يراد بهما صوغ ضباط وأرباب ولايات وعمالات يتولون قيادة الجند ووظائف الدولة. وقد أنشىء ببغداد عدد قليل من المدارس العسكرية والمدنية وقفت عند حدود الدراسة الثانوية ، ولم تتجاوزها إلى الدراسات العالية ، إلا فى أخريات أيام الدولة حين فتحت « مدرسة الحقوق » لتخريج حكام ومحامين ، فأقبل عليها الطامحون إلى مجد الوظيفة ، ليكونوا ضباطا فى الجيش أو موظفين فى الإدارة أو حكاما أى قضاة مدنيين أو محامين . وكانت الدولة ترسل الطلاب العسكريين إلى استنبول ليستكملوا دراستهم العسكرية العالية فيها . أما الطلاب المدنيون ، فالطامحون منهم إلى المناصب العالية كانوا يقصدون معاهد استنبول أو باريس . وقد نبغ من الفريقين نفر لم يكن شأنهم أقل من شأن نظرائهم فى الدولة .

وجملة ما يقال فى هذه الثقافة أنها أقيمت على اللغة التركية فى الغالب ، وعلى لغات أخرى أحيانا ، وأُخذت بها هذه الأجيال العربية فى العراق ، وحجبت عن لغتها ، لتنسى ماضيها العربى ولا تفكر إلا فى سلطان العثمانيين . فلم تنتفع منها اللغة العربية شيئاً يؤثر أو يذكر ، فكان المتثقفون بها فى واد والعراق العربى فى واد .

المجرى الثانى هو مجرى الثقافة العربية الإسلامية . وهو مجرى قديم موروث ، كان حظ العراق منه فى عصوره الزاهرة من أعظم الحظوظ إن لم يكن أعظمها . ولما دمر المغول حضارته ، واستعجم الحكم فيه ، وغنى الحكام الأعاجم عن استعمال اللغة العربية بالرطانات ، كاد يندرس هذا المجرى الثقافى وتنقطع ينابيعه لولا علماء الدين الذين تداركوه وحفظوه على قدر ما تهيأ لهم من مساعفة الظروف والأحوال .

ثم أتيح له أن يغزر ويخصب فى عهد المماليك ، وأعان داوود باشا خاصة (وكان عالماً وأديباً بالعربية) على إمداده بجميع وسائل ازدهاره الميسورة له إمداداً ظهرت آثاره فيما نتج عن ذلك من حركة علمية وأدبية

تؤلف سفراً ضخماً فى التاريخ الثقافى فى هذه الديار .

وامتدت الموجة فى اندفاعها إلى العهد الذى نتحدث عنه . وتُمَثِّلُ هذا المجرى فيه مدرستان مختلفتان كل الاختلاف فى المنحى والفكر والمادة : مدرسة يَرين عليها الجمود ، ولا تعدو حدود التقليد لمخلفات القرون الوسطى العجمية من معتقدات يقلّ فيها السداد ويكثر الباطل والزيف ، ومن آراء يغلب زبدها وغثاؤها على ما ينفع الناس . ومدرسة أخرى تتميز بالنشاط العقلى ، وتنزع إلى الاجتهاد والتحرر من نوازع التقليد ، وتدعو إلى تطهير الإسلام من البدع وتجريد العقيدة من رواسب الوثنيات ، وتنبه الأذهان للباب من علوى الدين والدنيا ، وتُعْنَى باللغة والأدب ، وتحبب إلى الناس تعلم اللغات واقتباس النافع من علوم الشعوب ومجاراة الأمم فى نهضاتها .

لا جرم أن هذه المدرسة هى التى نهضت بالعرب والعربية ، وأجدت على العلم والأدب بالإنتاج القيم الخصب ، ونشطت للاشتغال بالصحافة وكان منها أقدر كتابها الأوائل فى صدر تأسيس الصحافة فى هذه الديار ، وجددت فى الشعر والنثر ، ونوعت موضوعاتهما ، وحبرت القصائد المحجلة الغُرّ والمقالات الوطنية والسياسية والاجتماعية ، وصححت الأفكار ، وناضلت فى سبيل المثل العليا للدين والقومية . وبالجملة ، أصلت هذه المدرسة أصول النهضة العلمية والأدبية فى البلاد ، وأعدت أذهان الناس لاستقبال حياة فكرية فاضلة ملؤها الحق والخير والجمال .

وأما الحياة الدينية ، فكانت تتجاذبها عدة مذاهب يصطرع حولها العلماء ، ويسوقون الناس فى تياراتها المتعارضة سوقا ، جذبا ودفعا .

وكان أظهر هذه المذاهب ثلاثة : التصوف ، والتشيع ، والدعوة السنية السلفية . وقد كانت الدولة العثمانية تؤيد التصوف جملة فى مختلف « طرائقه » من رفاعية ونقشبندية ومولوية وغيرها ، وتمكن له ؛ وتحرص على تشجيع أربابه وإكثار عددهم كما رأينا ؛ وتناهض التشيع والحركة السنية السلفية

معا ، إذ كانت تنظر إلى القوى التى خلفهما نظرة ارتياب عظيم وحذر شديد سياسة لاديانة .

فخلف التشيع دولة إيران الإمامية ، وهى قد اصطرعت مع الدولة العثمانية زمناً طويلا من أجل الاستيلاء على العراق . ومع أن الإيرانيين انهزموا أمامها هزائم منكرة ، واستوسق لها من دونهم السلطان على العراق أربعة قرون ، ظلت تنظر إليهم بعين الحذر ، وتراقب تصرفاتهم ودعاياتهم فى العراق ، وتعد لها كل مايضعفها من الوسائل .

وأما الدعوة السنية السلفية ، التى هى المظهر الصحيح للعقائد السنية قبل أن تغشاها التحريفات والبدع ، فقد كانت خلفها قوة عربية صغيرة فى أواسط جزيرة العرب ، بدأ ظهورها فى أواخر الربع الأول من هذا القرن الرابع عشر الهجرى وهى تحاول استعادة سلطان سياسى كبير ذاهب . وكان قد أوجد هذا السلطان محمد بن عبد الوهاب وآل سعود فى القرن الثانى عشر ، فهزّ جوانب الدولة العثمانية هزاً كاد يفقدها زعامة العالم الإسلامى ، فاستعدت عليه « محمد على » مؤسس الأسرة الخديوية الألبانية بمصر ، فسارع إلى نجدتها ، ونهد بجيوشه إلى جزيرة العرب ، وحارب العرب بأسلحة جديدة فتاكة من أسلحة الغرب لم يألفوها ، فغلبهم ، وأزال سلطانهم ، وأخمد اليقظة العربية الإسلامية المتحررة فى عقر ديارها حيناً طويلا من الدهر .

لذلك ماكادت تنجم ناجمتها ثانية فى هذا القرن الرابع عشر الهجرى حتى عاود الأتراكَ الخوفُ الشديد من استفحالها ، فبادروها بحربين لإفسادها والقضاء عليها . القتال ، والدعاية . وقد قامت حرب الدعاية على تأليف الكتب والرسائل فى تشويه صورة الإصلاح الدينى الذى تتبّناه ، وحشد لها أبو الهدى الصيادى الرفاعى أعوانه ، وصانعه حتى مثل جميل صدقى الزهاوى

فكتب رسالته «الفجر الصادق». فلما زال العهد العثمانى، كتب فى مقدمة رباعياته[1] أنه ألف هذه الرسالة سياسةً لا تديناً، أو ما هذا معناه. وقد قوبلت هذه الكتب والرسائل بردود كثيرة من علماء نجد والعراق والشام ومصر والهند، أوحت إليهم بها الدراسات العلمية الحرة لا السياسات العابثة بالعقول.. فكانت هذه الحركة وما نتج عنها من آثار قيمة من أكبر المظاهر العقلية التى ظهرت فى عصر النهضة، زعزعت الناس عن المألوف من الخرافات والبدع، ووجهت العقول إلى منابع الإسلام الصحيح: كتاب الله، وسنة الرسول، وهدى السلف الصالح، ولذلك نُعتت بـ «السلفية» كما هى طبيعتها، وبـ «الوهابية» على سبيل التنفير.

---

(١) طبعت فى بيروت.

أسرته وبيأته الخاصة

ألوس التى تنتسب إليها أسرة الألوسى ، فيها لغات ، منها ألُوس بوزن صبُور وآلوسة بالمد ، ذكرهما الزبيدى فى تاج العروس ، وألوسة كما وردت فى نزهة المشتاق للإدريسىّ وصورة الأرض له أيضاً ، وآلـُس بمد الهمزة وضم اللام ، وقد ذكر هذه ابنُ خلكان عن ابن النجار المؤرخ البغدادى .

وهى جزيرة صغيرة قديمة فى أعالى نهر الفرات بالعراق ، تقع جنوبىّ عانة أو عانات كما كان يسميها القدماء (وهى أناث فى الكتابات المسمارية ، وأناثا فى الرسم الإغريقى) ، وشمالىّ هيت (وهى Is عند هيرودوتس) ، قريبة من حديثة النُّورة البلدة التى نُفى إليها القائم بأمر الله العباسى سنة ٤٥٠ هـ حين استولى البساسيرى على بغداد .

وقد زعم لها علماء البلدان تأريخاً قديماً جداً ، ارتفعوا به إلى عاد ، وأضافوا تسميتها إلى رجل أسطورى قالوا إنه أحد إخوة ثلاثة من قوم عاد ، يقال لهم آلوس وسالوس وناووس ، خرجوا هُرّابا من قومهم ، فنزلوا هذه الجزائر من قرى عانات ، فسميت بأسمائهم .

وذكروا أيضا — فيما ذكروا — أنها من بناء سابور ذى الأكتاف ، بناها ، وجعلها مسلحة لحفظ ماقرب من السواد إلى البادية ، وأقام عليها سوراً . ثم جدد هذا السور أنو شروان حين بلغته غارة طوائف من الأعراب على ماقرب من السواد إلى البادية ، ليصدهم عن بلاده .

وهى نزهة ، عذبة الهواء ، خضراء ناضرة ، كأنها فى ثبج الفرات حديقة نابتة فى الماء . تستقبل ألق الشمس وتودعه هادئة ساكنة ، تكاد تحس من سكونها العميق النأمة وهواجس الخواطر ، لولا تجاوب أصوات النواعير على حفافها ، وهى تسقى بساتينها ، وتدير طواحينها ، وتمد بيوتها المتناثرة بين

الحدائق بالرى . وقد قامت بين خضرتها قبة بيضاء شاهقة ، هى قبة مسجدها القديم ، وانتشرت على يمنتها ويسرتها جزر صغار حسان ، كأنها تتناعى معها لتطرد عنها وحشة الانفراد والانقطاع عن العمران . ولها من جهتها الغربية رصيف عال محكم ، أقيم من حجر الكلس ، ليقيها ارتفاع مد الفرات أيام الفيضان .

وهى موصولة بالشامية والجزيرة بمعابر من سفن تتحرك بسلك ضخم من الصلب مثبت بالشاطئين . ولكثير من أهلها زوارق يستخدمونها فى مصالحهم ، فتطوف حولها كأنها طيور الماء .

وأهلها زهاء ألف نسمة ، وهم يكادون يؤلفون أسرة واحدة من تشابك أصولهم بالمصاهرات . تغلب عليهم صحة الأبدان وسلامة الضمائر ، وصدق العقيدة . وهم على عرق من حب القرى ، الذى تقتضية طبيعة الحياة فى القرى ولوجوههم مجالس فى بيوتهم يقال لها (دواوين) يستقبلون فيها الضيوف والزوار ، فيتسامرون أو يتذاكرون فى شؤونهم العامة والخاصة أو يحلون ما يكون بين بعض الأفراد من منازعات .

وفى أسمارهم يعرضون لشؤون الدين وقضايا الأدب واللغة والتاريخ ، فإذا أشكل عليهم مشكل من الأمر ، رجعوا إلى الميسور لديهم من الكتب المخطوطة والمطبوعة .

وهم ذوو تدين ، وتقشف ، وقناعة ، وفيهم ذكاء ، ولهم ميل إلى التمجد بالشمائل العربية وبطولات السلف ، وبينهم ناس يعتزون إلى بيت النبوة .

ومعايشهم مما تغله بساتينهم والقرى القريبة التى يملكونها فى الشامية والجزيرة من التمر والفاكهة والحبوب .

وقد اعتادوا خشونة العيش ، واكتفوا بالميسور من الرزق ، ولبسوا الكرباس من غزل أيديهم ونسجها ، وهو كل ما يقدرون على صنعه .

أما الأذكياء النشيطون من شبانهم ، فينزحون إلى المدن الكبيرة ، ووجهتهم فى الغالب مدينة بغداد ، للتكسب والمتاجرة ، أو للتعلم واستيفاء المقسوم لهم من حظوظ المعرفة ، فلا يفتؤون يظفرون بما يطمحون إليه من ثراء أو علم أو أدب ، ويمدون البلد الذى يحلونه بنشاط وحركة من نشاطهم العقلى وحركتهم الدائبة فى الطلب .

نجد آثار ذلك ، وأمثلته البارعة قديماً وحديثاً ، فى سير بعض نبهائهم الذين نزحوا عن ألوس إلى بغداد أو غيرها ، وطلبوا المجد فأصابوه .

نذكر منهم :

(١) محمد بن حصن بن خالد بن سعيد بن قيس ، أبا عبد الله البغدادى الألوسى الطرسوسى . وهو معدود من المحدثين ، يروى عن جماعة منهم ، ويروى عنه جماعة آخرون .

(٢) أبا سعيد المؤيد عطاف بن محمد الألوسى ، الشاعر المشهور ، الذى حفل بسيرته أعلام المؤرخين من أمثال ابن النجار البغدادى والعماد الأصبهانى وياقوت الحموى وابن الأثير وابن خلكان . وكان من أعيان شعراء القرن السادس ، وسيرته مثال للجد والنشاط والطموح .

ولد سنة ٤٩٤ ﻫ بألوس ، ونشأ بها ، وقيل بدجيل ، فضاق بها طموحه ، فنزح إلى بغداد ، وصار جاويشاً فى أيام المسترشد بالله ، وتزيا زى الأجناد ، واتصل بخدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملك شاه السلجوقى ، فارتفع قدره وأثرى حاله ، ونفق شعره وكان له قبول حسن ، واقتنى أملاكا وعقاراً ، وكثر رياشه ، وحسن معاشه . ثم انقطع إلى الوزير العربى الخطير عون الدين يحى بن هبيرة الحنبلى البغدادى ، ومدحه مدائح جيدة . ولما استخلف المقتفى لأمر الله ، أظهر المؤيد كرهه لذلك ، وتفسح فى ذكر الخليفة وأصحابه بما لا ينبغى ، فقبض عليه وسجن ، وقيل اتهمه الخليفة بممالأة السلطان ومكاتبته

ولبث فى السجن أكثر من عشر سنين ، فلم يخرج منه إلا فى أول خلافة المستنجد بالله سنة ٥٥٥ ه ، وقد عشى بصره من ظلمة المطمورة التى كان فيها محبوساً ، وسافر إلى الموصل ، وتوفى فيها فى ٢٤ شهر رمضان ٥٧٥ ه .

وشعره طبقة عالية ، لقى من أهل عصره القبول الحسن ، وحفل نقاد الأدب بتقديره ، وأعجب الأدباء أسلوبه المطرب ومعانيه النادرة ، ورووا له من ذلك قوله فى صفة القلم :

ومثقف يغنى ويفنى دائماً ... فى طَوْرَى الميعاد والإيعاد
قلم يفلّ الجيش وهو عرمرم ... والبيض ما سلت من الأغماد
وهبت له الآجام حين نشا(١) بها ... كرم السيول وهيبة الآساد

وقوله :

لنا صديق يغرّ الأصدقاء ، ولا ... تراه مذ كان فى ودّ له صدقا
كأنه البحر طول الدهر تركبه ... وليس تأمن فيه الخوف والغرقا

وقوله ، وهو ابتداء قصيدة :

قامت لتوبتك الدنيا على ساق
والكأس قد أصبحت غضبى على الساقى

وربما وازن المؤيد المتنبي ببعض قصائده ، وضمن شعره أنصاف أبيات من شعره ، ليدل على قدرته والتحام شعره بشعره ، كما قال من قصيدة طويلة أجاد فيها :

فيابردها من نفحة حاجرية ... على حرّ صدر ليس تخبو سمائمه
ويا حسنه طيفاً وشى نور وجهه ... بطيفى ، فغطانى من الشعر فاحمه
يجول وشاحاه على غصن بانة ... سقاها الحيا فاخضرّ واهتزّ ناعمه
فلما رمى فى شملنا الصبح بالنوى ... ولم يبق منها غير معنى ألازمه

---

(١) نشا : مخفف « نشأ » المهموز .

وقفتُ بحزوى[1] وهى منها معالم قواء وجسمى قد تعفّت معالمه
وقوف بنانى فى يمينى ، ولم أقف وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه
ولم يُبق لى رسماً بجسمى صدودُها فيشجى بدمعى كلما انهلّ طاسمه
ولا مقلة أبقت فتغرم نظرة تباينه ، والمتلف الشىء غارمه
فلله وجدى فى الركاب ، كأنه دموعى وقد حنت بليل روازمه
وقد مد من كف الثريا هلالها فقبلته حتى تهاوت مناظمه

وقد وازن بهذه القصيدة قصيدة المتنبى فى سيف الدولة :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

(٣) محمد بن المؤيد الألوسى : ورث شاعرية أبيه ، لكنه عاش عمر الورد ، واختضر شاباً ، فلم تسعد الآداب بنتاج له موفور .

وقد رزق الله المؤيد ابنه هذا أيام سجنه فى قصة طريفة قلما يقع مثلها ، رواها ياقوت ، ولعلكم تتشوقون إلى سماعها .

وهى أن المؤيد لما كان فى حبس المقتفى لأمر الله ، وطال عليه الأمد ، توسل له ابن المهتدى ، صاحب الخبر ، فى إيصال قصته إلى الخليفة. يسأله فيها الإفراج عنه ، فوقع ، المقتفى : « أيطلق المؤبد ؟ » (بالباء الموحدة) . فزاد ابن المهتدى نقطة فى « المؤبد » ، وتلطف فى كشط همزة الاستفهام ، وعرضها على الوزير ، فأمر بإطلاقه .

فمضى المؤيد إلى منزله ، وكان فى أول النهار ، فضاجع زوجته . فاشتملت على حمل . ثم بلغ الخليفة إطلاقه ، فأنكره ، وأمر برده إلى محبسه من يومه وبتأديب ابن المهتدى .

فلم يزل محبوساً إلى أن مات المقتفى ، فأفرج عنه ، فرجع إلى منزله وله ولد حسن قد ربى وتأدب .

وروى العماد الأصبهانى فى خريدة القصر من خبر محمد هذا أنه كان ذكياً، له شعر حسن، وأنه هاجر إلى الملك العادل نور الدين بالشام سنة ٥٦٤ هـ، وكان يومئذ بصرخد، فمرض، فأنفذ إلى دمشق، فمات فى الطريق بقرية يقال لها رشيدة.

وقد حفظ لنا ياقوت من شعره هذه الأبيات يفخر فيها بأبيه، وهى تنم على شاعرية قوية.

أنا ابن مَنْ شَرُفَتْ علماً خلائقه	فراح متزراً بالمجد متشحا
أم الحجا بجنين قط ما حملت	من بعده، وإناء الفضل ما طفحا
إن كنت نوْراً فنبت من سحابته	أو كنت ناراً فذاك الزند قد قدحا

(٤) الشيخ إسماعيل بن أبى الوفاء الألوسى، تقدم ببغداد فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى حتى وُسِّدَ إليه إفتاؤها، وامتدت أيامه فى مقام الفتيا خمسة وعشرين عاما. ثم استعفى، وأم استنبول عاصمة الدولة العثمانية، فعظم، ووجهت إليه أرضون وجزر فى عانة وألوس وغيرهما. فتوطن عانة، وسكن بعض ذريته فيها، وبعض آخر فى ألوس، وله إلى الآن عقب هناك، ولا تعرف له آثار علمية.

* * *

ثم كان ارتفاع اسم (ألوس) وذيوعه فى القرن الثالث عشر الهجرى وما بعده بنبوغ «أسرة الألوسى». وقد كان ضئيلا بين أسماء البلاد، خفيا كالسها بين النجوم الزواهر، فضخمته هذه الأسرة، وأظهرته، وأذاعته بالانتساب إليه شرقاً وغربا، فعلا بعلوها وكان شأنها معه كشأن أبى الصقر مع شيبان فى قول ابن الرومى:

قالوا: أبو الصقر من شيبان. قلت لهم:

كلا، لعمرى، ولكن منه شيبان

كم من أب قد علا بابن له شرفا
كما علا برسول الله عدنان

* * *

من هذه الجزيرة فى الفرات ، كان أصل هذه الأسرة .

لكن ذكر جرجى زيدان فى « تراجم مشاهير الشرق » ، استناداً إلى رواية سليمان البستانى ، أنها بغدادية الأصل ، وأنها إنما انتسبت إلى «ألوس» لأن أحد أجدادها فر إليها بأهله من وجه هولاكو التتارى حين غزا بغداد ٦٥٦هـ ثم رجع إليها أبناؤه بعد عصور .

ولست أعرف لهذا الخبر أصلا يعوّل عليه ، ولا ذكراً فى مورد من الموارد المعتمدة ، ولدينا منها « حديقة الورود » للأديب عبد الفتاح الشوّاف من تلاميذ أبى الثناء محمود شهاب الدين الألوسى عميد هذه الأسرة ، وقد كتبها بإشراف أستاذه ، وكتاب «المسك الأذفر» لأبى المعالى محمود شكرى الألوسى حفيد أبى الثناء . ففى « حديقة الورود » : « أن أسلاف أبى الثناء كانوا يسكنون بغداد فى أواخر المئة الحادية عشرة ، أيام إفتاء الشيخ إسماعيل الألوسى (وهو الذى سُقْتُ خبره قبل قليل) ، وفى تلك الأيام ارتحل من كان ساكناً ببغداد منهم إلى الحديثة وألوس . ثم فى السنة السبعين أو قريبا منها من المئة الثانية عشرة جاء جده السيد محمود بن درويش الخطيب الألوسى إلى بغداد ، فاتخذها وطناً ، وتوفى فيها فى أوائل المئة الثالثة عشرة ، ودفن هو وزوجته فى مقبرة الشيخ أحمد الموصلى قرب مقبرة الشيخ معروف الكرخى » .

وقال أبو المعالى محمود شكرى الألوسى فى ترجمة جده أبى الثناء فى «المسك الأذفر» — وصاحب البيت أدرى بالذى فيه — : « إن جده الأعلى كان من ألوس ، فانتقل إلى بغداد ، واختارها له مسكناً من بين البلاد » . ولم يزد على هذا شيئاً .

فلو كان لما ذكره جرجي زيدان أصل ، لما أغفل ذكره فى هذين الموردين الأصيلين .

* * *

وهذه الأسرة علوية حسينية النسب . نبغت فى عصر المماليك ببغداد ، وأقامت مجدها على أعمدة العلم والأدب والتقوى ، وكانت هذه الخصال لعدة ظهور هي نسبها المختار ، فلم تذهب مذهب التمجد بالآباء والأجداد من دون احتذاء مثالهم فى فضائلهم ومضائهم ، لأن ذلك عجز وخور فى النفوس ، وإنما جنحت بهذه الخصال العالية إلى العمل بكل قواها على ما تقتضيه سنة الحياة ، فَمَجُدَتْ ، وكانت لها الصدارة وعلو المكانة بين البيوتات على قدر ما تهيأ لها من الكفايات والإنتاج .

أدرك عميدها ونابغتها أبو الثناء بثاقب فكره أن نسبه الذى ينحدر منه على شرفه الذى تنحط دونه الأنساب ، لا يغنيه فتيلا فى طلب الشرف الرفيع ما لم يسم إليه بنفسه ، فطلب العلم والأدب ، وجد واجتهد ، وعمل بعلمه وأدبه فبلغ غايات المجد والسيادة ، وكان قدوة حسنة لأبنائه وحفدته ولمن يطلبون المجد ، من أبوابه ، ولم يفته أن يذكر ذلك فى معارض مختلفة فى كتبه ، كالذى ورد فى « سجع القمرية » من قوله : « تفصيل حالى ، على وجه من المين خالى : أنى رجل علوى النسب ، حسيني المنتسب . علق بقلبي إذ عقلت أن أسمو بنفسى لا بأمّ وأب ، إذ السمو بمجرد النسب هبوط ، والارتفاع بمجرد ذلك سقوط ، والقناعة بالعظام ، ليست من شيم الكرام .

وما الفخر بالعظم الرميم ، وإنما فخار الذى يبغى الفخار بنفسه

وهو يبدىء فى هذا المعنى ويعيد فى أساليب وألفاظ مختلفة ، فى تفسيره « روح المعانى » وفى رحلته « نزهة الألباب » وفى مقاماته « أنباء الأبناء »

و « سجع القمرية » ، ليدل أبناءه على مجد العمل الذى هو وحده مجد الإنسانية كلها حين تستطيعه وتقوم به .

وقد أحسن أبناؤه وحفدته الإصغاء إليه ، وتنفيذ ما وصاهم به من ذلك وسبقهم إلى تنفيذه بنفسه ، وردد حفيده أبو المعالى محمود شكرى الألوسى صدى وصاياه فقال فى بعض كتبه : « إن المرء كثير بفضله لا بأهله ، ومنظور إليه بكرم أخلاقه لا بكرم أصله » . وقرن القول بالعمل ، فصدق فعله قوله .

وكذلك صنع سائر عشيرته ، وجروا على أثره قولا وعملا ، وكانوا أنأى أصحاب النسب النبوى الشريف أو من يـدّعونه عن اصطناعه وركوبه إلى غاياتهم فى زمان جاهل أغنى فيه مجرد دعاوى الانتساب إلى هذا الأصل الرفيع مالم يغن العلم وفضائل الأعمال .

خصلة مثالية لهذه الأسرة ، تذكر لها بالإعجاب حين تذكر طبيعة عصرها وما كان يجرى فيه من خلائق ويصطنع من وسائل وأعمال ، وكيف أنها ترفعت عن باطله وسفسافه وسمت إلى مراشد الحياة النبيلة وعملت بمناهج الصلاح .

* * *

ولهذه الأسرة نشأتان ببغداد .

نشأة قديمة كانت فى القرن الحادى عشر الهجرى ، حيث ارتحل فى أواخره من كان ساكنا ببغداد منها إلى الحديثة وألوس . وهى مجهولة عندنا ، لا نعرف من أمرها شيئا .

ونشأة حادثة كانت فى الثلث الأخير من القرن الثانى عشر الهجرى ، وذلك حين جاء السيد محمود بن درويش الخطيب الألوسى إلى بغداد ، فاتخذها وطناً ، وتوفى فيها فى أوائل القرن الثالث عشر ، على ما أثرنا ذلك عن « حديقة الورود » .

وهى ، أى حديقة الورود ، لم تعرّف السيد محمود هذا — مع الأسف — بأكثر من نعته بـ « الخطيب » . ولنا أن نستدل بهذا النعت على أنه كان من الفقهاء ، إذ كان عصره لا يعرف من أنواع الخطابة إلا الخطابة الدينية التى يقوم بها الفقهاء على منابر المساجد الجامعة فى الجُمَع والعيدين ، وهى من الوظائف التى لا تعهد إلا لمن تحقق بالفقه والديانة ، ولا يزال العمل جارياً على هذا حتى اليوم وإن كان الجد فى التعيين للوظائف الدينية فى ذلك العصر بالعراق أظهر منه فى عصرنا .

ووضحت من بعده شخصية ابنه السيد عبد الله صلاح الدين الألوسى فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ببروزه فى العلم والزهد والصلاح ، وقد بلغ بجده واجتهاده رتبة رئيس المدرسين ، ولم يكن الوصول إلى هذه الرتبة أمراً هيناً فى ذلك العصر ، وكان رجلا موفور النشاط عظيم المثابرة على أعماله . درّس أربعين عاما فى مدرسة أبى حنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب ، وكان يذهب إليها ما شيا إعظاما لأبى حنيفة رحمه الله كما يقول ابنه أبو الثناء ، وبينها وبين داره بالكرخ فراسخ ، لا يفتر له عزم ولا يدركه ملل ، وكان مع ذلك يدرس فى مدرسة أخرى ببغداد ، وحج بيت الله — قبل أن يتزوج — ثلاث مرات ، وأمّ مصر لزيارة أخيه السيد حسن الألوسى فوجده يوم دخل قدمات ، ووصله طوافه فى الأقطار العربية بعلمائها فانعقدت بينه وبين بعضهم كمحدّث الشام الشيخ عبد الرحمان الكزبرى مودة حاياها بمراسلاته . ثم أصهر إلى الفقيه النحوى الشاعر المتفنن الشيخ حسين العشارى ، صاحب الديوان المعروف باسمه ومؤلف الكتب الحسان فى فقه الإمام الشافعى ، المتوفىّ بالبصرة فى حدود المئتين والألف ، فتزوج من ابنته السيدة صالحة ، فولدت له أبا الثناء محمود شهاب الدين الألوسى وعبد الرحمان ؛ وتزوج سيدة أخرى ولدت له عبد الحميد . وتوفى رحمه الله فى الطاعون سنة ١٢٤٦ هـ ببغداد .

حبس على
يبلغ بلاغه

وواضح من هذا العرض أنه قد حبس جهده كله على التدريس ، ولم يحاول أن يصل أفقه بأفق أعلى منه ، وطرازه هذا له فيه نظراء بين علماء عصره لكنهم ربما لا يبلغون بلاغه فى مزاياه الأخرى .

فالظهور التام لهذه الأسرة إنما حدث بعده بأبنائه الثلاثة الذين تقيلوه ثم أربوا عليه فى أشياء . وقد كان عبد الرحمان أشبههم به فى منحاه ووقوفه عند حدود الوعظ والتدريس مع زعامة شعبية ملحوظة ، ثم عبد الحميد وقد شارك أباه وأخاه هذا فى فضائلهما وامتاز بشاعريته واشتغاله قليلا بالتأليف، وذهب بالمجد كله أبو الثناء الذى انقطع العهد بمثله فى العراق منذ ألف عام ولم يجىء بعده من يناصيه فى عبقريته ومجموع فضائله الممتازة . فهو مؤسس هذه الأسرة فى الحقيقة.وفى عقبه انحصر مجدها العلمى . ولا بد لنا من الوقوف عنده ، ثم عند أصحاب الآثار العلمية والأدبية من إخوته وذريته ، لنتمثل العوامل المؤثرة فى حياة أبى المعالى والمكونة لشخصيته .

(١) أبو الثناء محمود شهاب الدين الألوسى (١٢١٧ — ١٢٧٠ هـ) :

إذا كان أبو الثناء هو مؤسس هذه الأسرة والمظهر الأول والأكبر لنبوغها ، فهو مؤسس المجد العلمى والأدبى فى العراق فى عصوره الأخيرة بلا منازع . لا نعرف من يناصيه فى إحاطته وتعمقه وافتنانه ، وجمعه بين العلم والأدب واللغة والشعر والنثر والفتيا والتأليف البارع فى كل هذا بأساليب زاخرة بالروعة والجمال ، بل هو إمام القرن الثالث عشر الهجرى فى العالم الإسلامى كله . . لا أخرج فى هذا إلى المبالغة . وقد كان زمانه فى شحه العلمى والعقلى أبخل من أن يجود بمن يبلغ عشر ما بلغه . لكنه النبوغ . . ينطلق وراء حدود الزمان والمكان ، ليحلق فى الجواء الرحاب ، ويفتن فى الاستنان فى مسالكها المختلفة .

أخذ علمه من أبيه ومن نفر من علماء العراق ، منهم : عبد العزيز الشواف ،

وعلى السويدى ، ومحمد أمين الحلىّ ، وخالد النقشبندى ، وعلاء الدين على الموصلى . .

وبدأ بالتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وكان نبوغه مثيراً للدهشة والاستغراب ، فنصبه بعض الوجهاء مدرسا وواعظا وخطيبا ، ثم عين أمين الفتوى ومدرساً فى المدرسة القادرية ، ووُلى أوقاف مدرسة مرجان وكانت مشروطة لأعلم أهل بغداد بالكتاب والسنة ، وأجازه السلطان محمود على بعض كتبه برتبة «رؤوس تدريس إسلامبول» ، ونصب مفتى الحنفية ببغداد . ثم قلب له بعض الولاة ظهر المجن بسعاية حاسديه ، فعزله عن منصب الإفتاء ، ورفع عنه أوقاف مرجان ، وكاد له ، وطالت أيام محنته ، وساءت حاله ، فرحل إلى استنبول ليعرض أمره على السلطان عبد المجيد ، وقدم إليه تفسيره (روح المعانى) فأكبره وأكرمه ، وخصص له مبلغا من بيت المال فى كل عام . وبعد أن أقام فى استنبول عامين ، قفل إلى بغداد ، ولم تطل أيامه فتوفى عن ثلاث وخمسين سنة . وهى عمر قصير ، غير أنه عرضت جوانبه وطالت أبعاده بإنتاجه الخصب القيم وإبداعه فى هذا الإنتاج وتنويعه له من تفسير وحديث وفقه وكلام ومنطق وجدل ونحو ولغة وتاريخ ورِحل وشعر ونثر ، مع اضطلاعه بالتدريس وبالإفتاء ، وكان بيته مثابة طلاب العلم والأدب من أهل بغداد ومن أطراف العراق وكردستان ، فتخرج به خلق كثير ، وراسله العلماء ، والتف حوله الشعراء والأدباء ومدحوه بمدائح طنانة لم يُتح نظائرها إلا للملوك والأمراء .

وقد كان جهد سلف أبى الثناء من جهة أبيه مقصوراً كما رأينا على الخطابة والتدريس ، فخالفهم إلى ماذكرنا ، واستن سبيلا جديدة ، هى سبيل التأليف والافتنان بالأدب والكتابة . وأشاع ذلك فى أبنائه وتلاميذه ، فازدهرت حركة التأليف بالعراق بعد ذبول . ولعل مصدر هذا أنه ورث ميول جده لأمه الشيخ حسين العشارى ، وكان من أعيان الفقهاء وكبار الشعراء ، والوراثة

إذا صادفت موهبة وتوجيها أجدت وآتت أطيب الثمار .

وآثار أبى الثناء تمتاز بالإحاطة والعمق واستقلال الفكر وحريته ، مع روعة البيان وحسن الافتنان فى صياغة معانيه وأفكاره . وقد جاوزت مؤلفاته العشرين ، عدا فتاواه وترسلاته وأشعاره ، أذكر منها مايصور لنا أهم خصائصه فى الجوانب العلمية والأدبية التى تميز بها .

١ — روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى : وهو آية إمامته فى العلوم الإسلامية . جمع فيه بين ثلاث طرائق : طريقة السلف ، وطريقة المتكلمين ، وطريقة المتصوفة ؛ وتعقب فخر الدين الرازى فى كثير من المسائل الكلامية وغيرها ، ورد عليه بأقوى الأدلة وأوضحها ، ونصر مذهب السلف الأسلم بل الأعلم والأحكم ، وعرض لدقائق التفسير فأوضحها ، وحل مشكلاتها بفطنة وعلم وفكر مستقل ، وكتب فيه ما كتب من مباحث عالية ومطالب جليلة ببلاغة قلما نضحت بمثلها أقلام المفسرين .

وقد طبع مرتين فى مصر : مرة فى تسعة مجلدات بحسب تقسيم المؤلف ، ومرة أخرى فى ثلاثين جزءاً . وطبعت بعض أجزائه فى مصر أيضا طبعة ثالثة .

٢ — كتاب الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية : وهى ثلاثون سؤالا عويصا فى التفسير والفقه والكلام والمنطق والهيأة والرياضيات ، وردت من إيران ، وأريد بها تعجيز علماء بغداد ، فتصدّى لها أبو الثناء بالأجوبة الرائعة التى جعلت الشاعر عبد الباقى العمرى يقول فى الموازنة بينها وبين الأسئلة :

إن السؤال والجواب مثلما ... قد قيل فى التمثيل : « أنثى وذكر »

وقد طبع الكتاب فى استنبول سنة ١٣١٧ ﻫ .

٣ — الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية .

٤ — نهج السلامة إلى مباحث الإمامة .

٥ — النفحات القدسية . وهو فى هذه الكتب الثلاثة ينافح عن مذهب أهل السنة والجماعة ، ويذب عن حياض سلف الأمة الذين قام على جهادهم الإسلام . وقد بلغ فيها الذروة فى بسطة العلم ومعرفة أصول المذاهب الإسلامية وقوة الاستدلال وروعة المنطق .

٦ — كشف الطرة عن الغرة : شرح لدرة الغوّاص فى أوهام الخواصّ للحريرى صاحب المقامات المشهور ، استضاء فيه بشرح الشهاب الخفاجى المصرى ، لكنه رآه كالأصل قابلا للاختصار مع بقاء ما يحصل به الاعتماد والاستبصار ، فلخصه ، وعدل به عن ترتيب الأصل إلى ترتيبه على الحروف الهجائية ، وضم إليه زيادات دلّت على سعة علمه بالعربية وبصره بالنقد اللغوى الذى يعدّ أول من ألف فيه فى النهضة الحديثة . وقد كتبه أيام إقامته فى استنبول ، وطبع بعده فى دمشق سنة ١٣٠١ هـ .

٧ — نزهة الألباب ، وغرائب الاغتراب ، فى الذهاب والإقامة والإياب : وصف فيه رحلته إلى استنبول ذهابا وإقامة وإيابا ، وضمنه مطالب علمية وأدبية عالية وترجم شيوخه ومن لقى من العلماء ورجال الدولة العثمانية ، وهو من أروع كتب الرحل ، وأسلوبه مثال يحتذى لولا سجعه ، رشيق ، خفيف الظل ، ساحر البيان . طبع ببغداد سنة ١٣١٧ هـ .

٨ — نشوة الشمول فى السفر إلى اسلامبول .

٩ — نشوة المُدام فى العود إلى مدينة السلام : فصل فيهما مشاهداته فى رحلته إلى استنبول (اسلامبول) وإيابه منها ، وكتبهما بأسلوبه الأنيق ، وافتن فيهما بأوصاف الطبيعة خاصة ، ووصف شروق الشمس وغروبها فى كل يوم وصفا خاصا دل على سعة خياله وبلاغة قلمه . طبع الأول بمطبعة الولاية ببغداد سنة ١٢٩١ هـ ، والثانى فى سنة ١٢٩٣ هـ .

١٠ — المقامات : وهى خمس مقامات ضمنها قصة حياته ، وتجاربه ،

ومنازعه ، وخلاصة أفكاره الاجتماعية ، وأوصاف مجتمعه . سمى الأولى « إنباء الأبناء بأطيب الأنباء » ، والثانية « الإعوال من الأخوال » ، والثالثة « قطف الزهر من روض الصبر » ، والرابعة « زجر المغرور عن رجز الغرور » ، والخامسة « سجع القمرية فى ربع العمرية » .

وكتبه الأخرى ذكرتها فى (أعلام العراق) .

أما شعره ونثره ، فقد امتلك فيهما ناصية البلاغة . وقد أقل من الأول فلم يقلهُ إلا فى أغراض خاصة ، ولو استقل به لما تعلق بغباره شاعر . ونثره كثير جداً ، وهو أرقى نثر فنى عرفته اللغة العربية فى عصورها الأخيرة ، بل هو يساوق به أساليب أكبر الكتاب فى العصور الزاهرة فى قوة صياغته ورشاقة مبانيه وجمال معانيه وتموجات ظلاله التى تمتزج الصناعة فيها بالطبع وخفة الروح ورقة الظرف وسلامة الذوق . ويندر أن نجد رجلا يبلغ مكانته الدينية العظمى ، ولاسيما فى مثل عصره البارد المظلم ، ويسمو هذا السمو ، وتكون له ســعة خياله وحريته وحرارته فى الإبانة عن أحاسيسه ، وإطلاقه لفكره وقلمه العنان فى ميادين الفكاهة والنقد الساخر الضاحك والباكى .

وكان مع شيوع السجع فى عصره وسلطانه القوى على الأقلام ، يحاول الخروج من سيطرته ما استطاع ، على أنه إذا سجع ووازن جرى كلامه منسجما متساوقا فى خلابة وموسيقى وعذوبة جرس .

تلك هى أخص خصائص مؤسس مجد هذا البيت والناهض بالعلم والأدب والنثر الفنى فى العراق خاصة والعالم الإســلامى عامة .. أسوقها فى غاية الاختصار والإيجاز ، مضطراً ، وفى نفسى أن هذا الإيجاز الشديد قد ظلمه وظلم التاريخ والحقيقة معه . ولكن ماحيلتى فى الوقت المحدود وضرورة الاتجاه سريعا إلى الغرض المقصود .

وقد خلف أبو الثناء خمسة أشبال ، اغترفوا جميعا من بحره ، واقتبسوا من نوره ، ومشوا على أثره .

٢ — عبد الحميد بن عبد الله الالوسى (١٢٣٢ — ١٣٢٤ هـ) :

وهو أخو أبى الثناء لأبيه . كان من أفراد الأذكياء ، وصاحب فقه وتصوف وشعر وتأليف . أصيب بالجدرى فى سنته الأولى فعمى ، وكان من فرط نباهته وقوة حافظته أن حفظ القرآن ابن ست سنوات ، تخرج بأبيه ثم بأخيه أبى الثناء ، ونبغ فى المعقول والمنقول ، وقرض الشعر الجيد ، ووعظ الناس شابا ، وكان ذلق اللسان فصيحه ، فلفت انتباه الناس إليه ، وحضر الوزير على رضا باشا والى بغداد وعظه ، فأخذ بسحره ، فنصبه مدرسا براتب وافر ، وأقطعه أرَضِينَ تكفيه مؤونته . ثم غلب عليه التصوف ، وسلك فى الطرائق الثلاث « الرفاعية والقادرية والنقشبندية » ، وأجيز بها ، وصار له فيها أتباع ومريدون يدعون فيه الولاية ويضيفون إليه الخوارق ، على أنه مع ذلك لم يسمع منه كما حدثنى أبو المعالى الألوسى مايخالف ظاهر الشريعة ولا ما يتكلف فى تأويله . من مثل ما يحكى من مقالات الصوفية القائلين بوحدة الوجود والاتحاد ، وأقام على العزلة فى داره أربعين سنة لا يخرج إلا لصلاة الجمعة والعيدين ، فكان الناس يفدون إليه ويتبركون بإرشاده .

وله كتاب « نثر اللآلى فى شرح نظم الأمالى » فى العقائد ، اعترض فيه على مواضع عديدة من شرح العلامة على القارى من شراح هذا النظم . أملاه فى أربعة أشهر ، وطبع ببغداد سنة ١٣٣٠ هـ .

وهو شاعر مطبوع ، رقيق الغزل عذبه ، جيد المدح ، لم يتجاوز بمدحه أخاه أبا الثناء وبعض مشيخته ، ومنحاه فى جملة شعره منحى المتصوفة فى الغالب ، ومنه يصف وجده المبرح :

تنوح حمامات اللوى وأنوح ... وأكتم سرى فى الهوى وتبوح
وتعجم إن رامت أداء مرامها ... ولى منطــق فيما أروم فصيح
لها مقلة عند التنائى قريرة ... ولى مدمع يوم الفراق سفوح
وأنّى لذات الطوق طوق على الجوى ... وجفن إذا شح السحاب هموع ؟
تروح وتغدو فى أمان من الهوى ... وأغدو كئيبا بالهوى وأروح
وأخبار وجدى فى الأنام شهيرة ... ومن سقمى أن الغرام صحيح
صبور على مر الغرام وعذبه ... أبىّ ولكن الغرام فضــوح
إذا تم أقسام الجمال بحيز ... فإن جميل الصبر عنه قبيح
وبى أهيف يهوى البعاد ، ووكره ... سويداءُ قلبى وهو عنه نزوح

وله :

هيهات ! هل تلج الملامة سمع ذى ... وله أسير لا يروم سراحا ؟
أم كيف يسلم مسلم من فتنة ... والله قد ملأ الوجود ملاحا ؟
من كل ذى قد ولحظ فاتك ... للفتك جرّد ذابلا وصفاحا
كالغصن أو كالظبى أو كالبدر أو ... كالشمس أو كالصبح لما لاحا
يبدو بخد ناعم وبمبسم ... فيريك ورداً أحمراً وأقاحا
ومراشفاً مثل العقيق ، ووجنة ... مثل العقيق ، ومنظراً وضاحا

٣ — عبد الله بهاء الدين الآلوسى (١٢٤٨ — ١٢٩١ هـ)

بكر أولاد أبى الثناء ووالد أبى المعالى الآلوسى . عالم فى علوم الشريعة والتصوف لا يطاول ، وأديب تام الأداة ، وكاتب يجرى فى مذهب أبيه وأسلوبه . تخرج بأبيه فى المنقول والمعقول ، واقتدى به فى جملة فضائله ، وحاكاه حتى فى خطه ، وتعاطى الصناعة اليدوية ، فكان يشتغل أدق الأشغال

بغاية المهارة والإتقان ، ويجلد الكتب لنفسه أحسن تجليد ، وترفع عن مناصب الدولة، وآثر عليها التدريس فانصرف إليه ، وكان نسيج وحده فى التقرير وتقريب الشوارد إلى الأذهان ، فأقبل عليه رواد العلم والأدب لكنه لم يقم عليه إلى النهاية ، إذ كان مبتلى بالعلل والأوجاع منذ طفولته ، فكان إذا هادنته أقبل عليه ، وإذا هاجمته تركه ، ثم ألحت عليه حتى أورثته الخبال ، فنزع إلى التصوف ، وأقبل على مشيخة النقشبندية فى كردستان يطب لدائه النفسى . وكان إلى ذلك محدوداً مُحارفاً قد أدركته حرفة الأدب وآدته غائلة الأسرة ، فباع كتبه وأثاثه وعقاره مضطراً ، وسافر إلى استنبول ليجلب النفع ويدفع الضر ، لكنه لاحقه النكد فى سفره أيضاً ، إذ خرجت عليه ثلة من قطاع الطرق بمحل يقال له « القعرة » فسلبته ونبذته بالعراء ، حتى كاد يهلك لولا أن تداركته العناية بناس مروا به فأنجوه وعادوا به إلى بغداد صفر اليدين . وأنزلته الضرورة على ما كان يكره ولايته من أعمال الدولة ، فولى قضاء البصرة ، ثم غادر البصرة (بعد سنتين أكلت فيهما حماها جسمه) إلى بغداد ، لينام فى ثراها نومه الأبدى .

وكان تقياً زاهداً عفيفا أبيا شديد الورع ، كبير النفس ، حاد المزاج ، سريع الغضب سريع الرضى ، قوى الفطنة ، طيب المفاكهة ، موصوفا بمراعاة حقوق الأخلاء وحب الفقراء .

ألف عند سنوح الفرص واختلاس أيام الصحة وأوقات الفراغ — مؤلفات نافعة ، أذكر ما عرفته منها :

١ — التعطف على التعرف فى الأصلين والتصوف . منه نسخة بخط ابنه العلامة شكرى الألوسى فى مكتبة الأوقاف العامة ببغداد ، قسم الخزانة النعمانية الألوسية .

٢ — الواضح فى النحو : حسن الترتيب ، سهل العبارة ، دلّ فى جملته على دقة المؤلف وقوة عارضته فى تحرير الأبحاث .

٣ — متنان فى علمى المنطق والبيان
٤ — الروض الخميل فى الأدب .
٥ — ترسلاته : جمعها ابنه السيد محمود شكرى الألوسى فاستغرقت جزءاً لطيفاً فى نحو مئة صفحة ، عدا ما فقد منها ومن شعره ولم تدركه أيدى البحث .

وقد خلف خمسة بنين (١) جروا على منهجه فى العلم والأدب والتعفف ، وكانوا أصحاب فضل ووجاهة وتهذيب ، تولى ثلاثة منهم القضاء والإدارة فى الدولة العثمانية وبلغوا درجاتها الرفيعة ، واستوزر واحد منهم فى الحكومة العراقية ، وانقطع اثنان منهم إلى العلم والزهد انقطاعا تاما ، وكان واسطة عقدهم نابغتهم أبو المعالى محمود شكرى الألوسى الذى ورث أرفع خصال أبيه وجده ، وكان أحد أعمدة هذه الأسرة .

٤ — عبد الباقى الألوسى (١٢٥٠ — ١٢٩٨ هـ) :

وهو ثانى أبناء أبى الثناء . وقد كان من أجلاء علماء العراق . تخرج بأبيه وبعض تلاميذه وغيرهم كعيسى البندنيجى البغدادى ، فتأدب ، وتفقه . ودرس الهيأة وسائر الرياضى ، وقرأ الأصلين والتفسير والحديث ، وسافر فى صغره إلى استنبول مع أبيه سنة ١٢٦٧هـ فافتتن بها ، فأتاها بعد ذلك مراراً ، وفاز مرة بالمثول لدى الخليفة العثمانى ونال بعض مراتبه ، وتقلد القضاء فى كركوك وبتليس ، وحج بيت الله ، ودخل القاهرة .

نحا منحى أبيه فى التأليف ، وله من الكتب .

١ — كتاب القول الماضى فيما يجب للمفتى والقاضى .
٢ — الروضة اليانعة فى بيان السفرة الرابعة .
٣ — الفوائد الألوسية : فى العروض .

---

(١) ترجمت لهم فى (أعلام العراق) .

٤ — أوضح منهج إلى معرفة مناسك الحج .
وغيرها (١) .

أما عقبه فقد تثقفوا ثقافة حديثة وتأثروا بمطالب العصر فاشتغلوا فى الإدارة وتعاطوا الهندسة والطب .

٥ — أبو البركات نعمان خير الدين الآلوسى (١٢٥٢—١٣١٧ هـ) .

وهو ثالث أنجال أبى الثناء ، وثانى اثنين بنيا مجد الاسرة ، وأعلم أهل عصره . فى مصره . كان أنبغ إخوته الخمسة ، وأعلمهم ، وأكثرهم شبها بأبيه فى حدة ذكائه وسعة علمه وشدة نشاطه ، وإليه يعود الفضل فى نشر أهم كتب أبيه وتعريف الناس بنبوغه . وهو علامة فى العلوم الإسلامية متبحر ، واسع الفكر والأفق ، مصلح متحمس ، متحرر من التقليد ، جرئ فى مجاهدة البدع بذل جهوداً كبيرة فى سبيل تجديد الإسلام وتنقيته من الشوائب التى أضيفت إليه ولقى فى ذلك الالاقى من الحشوية والمتشبهين بالعلماء ، وانتصب لقراع «المبشرين» من دعاة النصرانية وصد حملاتهم على الإسلام وكان عظيم التوفيق فى ردوده عليهم وتفنيده لأضاليلهم ، فهو بحق قائد الحركة الإصلاحية بالعراق وحامى الإسلام فى الشرق الإسلامى فى هذه الحقبة من الزمن .

تخرج بأبيه العظيم وتلميذه الفقيه السلفى السيد محمد أمين الواعظ ، ونبغ وتحرر فكره ونزع إلى الاجتهاد . وتولى فى شبابه القضاء فى بلاد عديدة ، ثم تركه وانصرف إلى التأليف ، ونهض بطبع تفسير أبيه فسافر من أجل هذا إلى القاهرة ، ورحل إلى الحجاز وحج ، وأفاد من الرحلة إلى هذين البلدين التعرف على كبار العلماء ، واطلع فى القاهرة على (فتح البيان) تفسير العلامة المصلح السيد حسن صديق خان ملك بهوبال ، وكان يطبع بالمطبعة الأميرية ، فراقه منزعه إلى الاجتهاد ، ثم اطلع فى مكة على كتب أخرى من كتبه زادت

(١) أنظر كتابى (أعلام العراق) .

من إكباره لعلمه وإعجابه به ، فكتب إليه يستجيزه ويذكر له تعلقه به ، ثم أهدى إليه كتابه القيم (جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين) ، ورغب إليه فى طبعه وطبع تفسير أبيه (روح المعانى) ، فاستجاب له ، وأعانه على ما هو بسبيله من الجهاد فى سبيل الإسلام الصحيح والمنافحة عنه . ثم رحل إلى استنبول ليستعيد ما اغتصبته يد الجور من أوقاف مدرسة مرجان وتدريسها ، ومر بسورية وبلاد الأناطول ، واجتمع بعلمائها ، وأجاز وأجيز ، وبالغ رجال الدولة العثمانية فى استنبول فى تكريمه ، وأصدر السلطان عبد الحميد أمره بإعادة مدرسة مرجان وأوقافها إليه ، ثم عاد إلى بغداد بعد سنتين فتصدر للتدريس بعنوان رئيس المدرسين ، وأنفق أوقاته كلها فى الوعظ والتدريس والتألف ، وأنشأ مكتبة حافلة بنوادر الكتب مما دأب على اقتنائه طوال حياته فوقفها على مدرسة مرجان ، وعين لها محافظاً ، رجاء أن ينتفع بها أبناء وطنه .

وفضائله كثيرة . ومن مميزاته — إلى جانب ما ذكرت من تبحره فى العلوم الإسلامية — تحققه بعلوم اللغة ، والأدب ، والشعر والنثر ، وقيامه بالتأليف ، واضطلاعه بنشر بعض آثار السلف الأدبية ثلاثة عشر مؤلفاً فى تحرير العقيدة الإسلامية والذب عن الإسلام وفى اللغة والأدب والتاريخ ، هذه أهمها :

١ — جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين : أحمد بن تيمية الحرانى الدمشقى الإمام المجدد العظيم المتوفى فى السجن بقلعة دمشق سنة ٧٢٨ هـ ، وأحمد ابن حجر الهيتمى المصرى الفقيه الشافعى صاحب الفتاوى الحديثة . المتوفى سنة ٩٧٤ هـ وهو كتاب ضخم يأتى فى طليعة كتب الإصلاح الدينى فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى .

٢ — الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح : رد به رسالة منسوبة إلى

عبد المسيح بن إسحاق الكندى ، زعم أنه أجاب بها فى زمن المأمون رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمى حينما دعاه إلى الإسلام، وكلتاهما فيما يظهر مزورة، وقد طبعتهما الجمعيات النصرانية التبشيرية فى ليدن سنة ١٨٨١ م ثم فى بعض بلاد العرب . وهو سفر فى مجلدين كبيرين ، عظيم فى مادته وحججه الدواحض ، فرغ من تأليفه سنة ١٣٠٦ ، وطبع بالمطبعة الإسلامية فى لاهور .

٣ — غالية المواعظ : وهو عمدة الواعظين فى الأقطار الإسلامية ، ولا سيما العراق ، جزءان ، طبع مرتين فى مصر .

٤ — كتاب الأجوبة العقلية لأشرفية الشريعة المحمدية : كتبه جواباً عن سؤال منشور فى جريدة فارسية تصدر فى كلكتا من مدن الهند ، يقال لها « الحبل المتين » ، موجه إلى علماء الإسلام لإثبات أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، وأن شريعته نسخت سائر الشرائع . . . طبع فى بمبى بالهند سنة ١٣١٤ هـ .

٥ — مختصر ترجمة الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب لابن الجوزى .

٦ — سلاس الغانيات فى ذوات الطرفين من الكلمات : كتاب فى اللغة ، فى الأسماء التى تقرأ طرداً وعكساً ، مثل : سدس ، قلق ، ليل . طبعه ابنه العلامة على علاء الدين فى بيروت سنة ١٣١٩ هـ .

٧ — حَوَرُ عيون الحور : مجموعة شعره ونثره .

وبقية مؤلفاته مذكورة فى كتابى (أعلام العراق) .

وقد خلف أبو البركات ثلاثة أولاد سلكوا مسلكه فى العلم والأدب والإصلاح الدينى، وهم ثابت وعلى علاء الدين وحسام الدين وقد تعرض الأول للنفى مع أبى المعالى من أجل الدعوة إلى الإصلاح الدينى ، وشارك الثانى أبا المعالى فى بعض مساعيه السياسية كما سيأتى فى ترجمته .

٦ — **محمد حامد الالوسي** (١٢٦٢ — ١٢٩٠ هـ) :

وهو رابع أنجال أبي الثناء . أخذ علوم العربية والفقه والحديث عن إخوته وغيرهم من علماء بغداد . وقد كان حاد الذكاء ، فنبغ وشرح قبل بلوغه العشرين أربعين حديثاً من صحاح الأحاديث . ثم قضت عليه الحياة بالتحول إلى المسلك المدنى ، فرحل إلى استنبول ، ودخل إحدى المدارس السلطانية ، وتعلم التركية ومهر فيها حتى ألف بها ، وتقلد بعض المناصب ، وأرسل بمهمة رسمية إلى طرابلس الغرب فنفذها ، فعظمت الثقة به ، ووجه إلى عسير لإطفاء فتنة شبت فيها ، فعلقت به هناك أدواء أوهنته ، فعاد إلى استنبول واختضر شابا .

٧ — **أحمد شاكر الالوسي** (١٢٦٤ — ١٣٣٠ هـ) :

خامس أنجال أبي الثناء . تخرج بإخوته وغيرهم من علماء بغداد ، وامتاز بقوة الحافظة فحفظ كثيراً من المتون وأكثر مقامات الحريرى ، وجلس للوعظ فى العشرين ، وولى القضاء ؛ وسافر إلى استنبول ، ولقى السلطان عبد الحميد فمنحه مولوية البلاد الخمسة من الرتب العلمية والوسام العثمانى من الرتبة الثالثة ، ونصبه مدرساً وناظراً فى مدرسة السيد سلطان على ببغداد ، فنشط للعلم ، ونشر بعض كتب أبيه ، ثم منحه السلطان عبد الحميد رتبة قاضى الحرمين والوسام الثالث المجيدى ، فأثار ذلك حساده ، فلفقوا عليه تهمة بلغوها إلى السلطان ، فأخذ إلى استنبول مخفوراً ، وحوكم ، فظهرت براءته ، فعينه عضواً فى مجلس المعارف الكبير فى استنبول وأميناً لخزانة كتبه الخاصة ، وأكرمه ، فأثرى واقتنى عقاراً ومزارع بالعراق ، وأقام على ذلك خمسة أعوام حتى أدركته الوفاة .

وله كتاب « أحسن الكلام ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام » : ضمنه مقدمة فى الوحدانية والنبوة والرسل ، وخمسة أبواب فى رسالة محمد إلى جميع الأنام وأنه خاتم الأنبياء ، وفى مولده ونسبه ، ومبعثه وهجرته ، ودلائل نبوته ومعجزاته وسيرته ، وما يلزم العمل به من شريعته (١) .

* * *

ونبغ بعد هذه الطبقة ثلاثة أعلام : محمود شكرى الألوسى وسيأتى حديثه مفصلا ، وعلى علاء الدين الألوسى ، وأحمد هاشم .

(٨) على علاء الدين الألوسى (١٢٧٧ — ١٣٤٠ هـ) :

وهو ابن ابى البركات نعمان خير الدين ابن ابى الثناء . أخذ عن أبيه وعن ابن عمه محمود شكرى الألوسى وغيرهما ، وتعلم الفارسية والتركية ، ونظم الشعر بالعربية والتركية ، وأوفده أبوه فى صباه إلى ملك بهوبال العلامة السيد حسن صديق خان ، فقرأ عليـــه وعلى شيخه الشيخ حسين بن محسن اليمانى الأنصارى ، وأجازاه إجازة عامة ، ثم تخرج فى مدرسة القضاة فى استنبول ، وولى قضاء بعلبك والعمارة والديوانية وبغداد ، وانتخب نائباً عن بغداد فى المجلس النيابى العثمانى بعد إعلان الدستور ، وقام مقام أبيه فى التدريس فى مدرسة مرجان فانتفع به خلق كثير ، واشتهر فضله ونبله ، وعلت مكانته ولما نشبت الحرب العالمية الأولى ، وهاجم الانكليز العراق ، رأت الدولة العثمانية أن تستعين بعلمه ودهائه ومقامه الكريم فى إقناع الأمير عبد العزيز ابن عبد الرحمن الفيصل آل سعود بالوقوف إلى جانبها وضرب الانكليز من مؤخرتهم ، فندبته للسفر إليه فى أواسط جزيرة العرب، على ما سيأتى تفصيل

---

(١) رأيت كراسات منه فى خزانة كتب ابنه الجليل السيد محمد درويش الألوسي رحمه الله ، وهى الآن فى حوزة ابنه الأستاذ هاشم الألوسي .

ذلك فى ترجمة العلّامة محمود شكرى الألوسى . وتوفى وهو يلى قضاء بغداد .

كان على جانب عظيم من العلم والأدب والذكاء وقوة العقل والنبل وأصالة الرأى والورع وعلو النفس وجمال السمت ، جمع بين الفقه واللغة والأدب والشعر والقضاء والسياسة ، وكان ظاهر الشخصية فيها جميعاً ، ومثل بفقهه وعدله وتمسكه بالحق كبار قضاة السلف ، وجرى فى طريقة أبيه من التحرر والاجتهاد وبعث حركة الإصلاح الدينى ، ونشط رواد العلم والأدب ،ووقف كتبه وأضافها إلى مكتبة مرجان ، ونشر طائفة من كتب أبيه ورسائل بعض السلف . ككتاب التوحيد ، وغاية السول ، ونقد مقامات الحريرى لابن الخشاب وانتصار ابن برى للحريرى .

وله :

١ — كتاب الدر المنتثر فى رجال القرن الثانى عشر والثالث عشر ، قيد كثيراً من مواده فى مجموعاته ، ولم يجمع شتاته ولا أتمه .

٢ — شعره : وهو متفرق ، وقد جمعته وصنعت منه ديواناً .

ومن لطائفه الشعرية قوله فى برج بيروت :

إن فى قبة السماء بروجاً ليس فيها سوى هلال يدور
وببيروت لم يكن غير برج كل يوم تدور فيه بدور

وقوله يصف الناس فى عصره :

لعمرك إن الناس ساءت فعالهم وقد طلقوا المجد الأثيل ثلاثا
تراهم رجالا إن نظرت جسومهم وتلقاهم عند الفعال إناثا

وكان مولعاً بالموازنة بين السمر والبيض ، ومن قوله فى ذلك مورّياً :

بى أسمر ترهب الألباب صولته إذا سطا بسيوف اللحظ أوصالا
لا أنثنى عن هوى السمر الملاح على ما بى ولو قطعتنى البيض أوصالا

(٩) أحمد هاشم (١٨٨٥ م — ١٩٣٣ م) :

هو ابن محمد عارف حكمة بن عبد الله بهاء الدين بن أبى الثناء . نشأ أبوه على العلم والأدب ، ثم اضطر إلى ولاية الأعمال الإدارية فتقلد مناصب عديدة فى العراق وسورية وإمارة فزان من أعمال طرابلس الغرب ، ثم سكن استنبول وتنسك وحفظ القرآن ، وتوفى فيها . وولد أحمد هاشم ببغـــداد ، ونشأ فى استنبول حيث أقام أبوه ، وتخرج فى مدارسها ، وأولع بالأدب التركى والأدب الفرنسى ففاق فيهما ، وتنافست الصحافة التركية فى نشر أدبه من نثر وشعر . وكان محدثاً فصيحاً من أعذب المحدثين كلاماً ، فبرز فى المحافل الأدبية وشغل مناصب علمية وإدارية رفيعة ، وذاع صيته بسيرته الأدبية فى الأدب التركى الحديث وأثره البعيد فى رفع منار الشعر القومى التركى ، وصار من أخص أصدقاء أتاتورك مؤسس تركية الحديثة .

وكان يوصف عند الترك بأنه شاعر التصوير والأغانى ، ولشعره طابع خاص صار « مدرسة » فى الشعر التركى الحديث تدعى باسمه . وقد نحا ببعضه من حيث الشكل منحى الشاعر الفرنسى الرمزى هنرى دى رينيه . وربما كانت شاعريته وأخيلته فى نثره أظهر منها فى شعره .

وكان لمدينة بغداد التى أنبتته وفارقها صغيراً نصيب كبير فى شعره ،صور فيه ما علق بذهنه من صور نهرها الجميل وسمائها الزرقاء الصافية ولياليها المقمرة فى الصيف ، ووصف فيه أحاسيس طفولته وذكرياته عن أمه .

ودواوينه مشحونة بالعواطف الحارة وألق الجمال ، وقد ترجمت إلى بعض اللغات الأوربية ، واحتفل المعجبون به من كتاب الترك بالتأليف فى سيرته وتحليل أدبه وطبع آثاره .

• • •

تلك هى أسرة أبى المعالى محمود شكرى الألوسى لأبيه .

وقد تمثلنا فى هذا العرض السريع منها خصالا . الخصلة الأولى كثرة عدد النبغاء فيها كثرة قلّ أن عرف مثلها فى بيت من بيوتات العلم فى عصور الإسلام الأخيرة . الثانية قيام حياتها على أصول الإيمان والصلاح والتقوى ونحوها من المثل الأخلاقية فى عصر قلّ الاحتفاء فيه بمثل ذلك ، أورعايته ، وحلت محلّ هذه الأصول فيه نوازع أخرى مما ولدته الحياة المادية الخالصة ، وهى قلّ أن تعترف بالمعانى الروحية إن لم تكن تنكرها إطلاقاً . الثالثة تمثيلها للفكر الإسلامى ، وتمكينها له ، واحتفالها بمقوماته من تشريع ولغة وأدب . الرابعة خصلة المنافحة عن الإسلام الصحيح ، والاجتهاد فى الإبانة عن عبقريته ، والثورة على الانحراف عن الجوهر وما لحق بالإسلام منه من تغيير لمفاهيمه وتبديل لصورته ، الخامسة خصلة التحرر من الجمود والتقليد والميل إلى الاجتهاد فى تحرى الحق ، وتغليب أصول النقد والنظر والاستدلال فى كل ما تتناوله من قضايا الفكر الإسلامى . السادسة إنصرافها التام إلى الإنتاج الخصب المثمر ، والإكثار من هذا الإنتاج ، وتنويعه ، وتجويده وإتقانه ، والاحتفال بكل لوازم التجويد والإتقان من تجميل للخط وعناية بالضبط والتزام لأصول التحقيق . السابعة نشاطها للرحلة وجوب الآفاق فى الأقاليم الآسيوية والافريقية من ممتلكات الامبراطورية العثمانية خاصة فى طلب العلم حيناً ، ونشره حيناً آخر ، وفى التصرف فى أمور المعاش والمعاد على النحو الذى ذكرنا من أمثلته فى تراجم رجالها . وخصال أخرى من خصال النفس العربية المؤمنة الابية الحرة المترفعة الشجاعة التى لا تخشى فى الحق ملامة لائم ولا جناية ظالم ، وقد تبينا من سير رجال هذه الاسرة صور هذه الخصال ، وستبينها كلها أو أكثرها متجسدة فى خاتمة عظمائها « محمود شكرى الالوسى » .

* * *

أما أسرة محمود شكرى الالوسى لأمه ، فهى أسرة الشابندر البغدادية المعروفة . وهى من الاسر العريقة ، تنحدر من أصل سورى من مدينة حماة ، كان جدها محمود بك (وهو الذى ورد من حماة إلى مدينة الحلة «متسلما») (١)

من رجال الإدارة فى الدولة العثمانية . سكن بغداد ، وأصهر إلى آل جميل فتزوج من السيدة آمنة أخت عبد الغنى بن محمد جميل مفتى بغداد المتوفى سنة ١٢٧٩ ه ، وتصرف أولاده وذراريهم فى التجارة وفى عمالة الدولة وفى القضاء والمحاماة والسياسة وأعمال أخرى ، وإلى ابنه محمد الشابندر أصهر السيد عبد الله بهاء الدين بن أبى الثناء الالوسى فتزوج من سليلته الوحيدة السيدة بديعة (٢) أم محمود شكرى الالوسى .

وكان من خصال رجال هذه الاسرة عمل البر ومؤازرة العلم والعلماء ، ومن المعروفين منهم فى هذا محمد سعيد جلبى بن أحمد بن محمود بك الشابندر ، وكان معدوداً من وجوه التجار وأرباب البر ، عمر ثلاثة جوامع ببغداد وبعقوبا والعمارة ، ووقف عليها العمارات الدارّة . ثم ابنه محمود جلبى الذى آزر الحركة العلمية ببغداد بماله وإنشائه مطبعة عرفت بمطبعة الشابندر ، فنشر بعض ذخائر الفكر الإسلامى القديم مثل كتاب مختلف تأويل الحديث لابن قتيبة الذى كان الفضل الاول فى تعريف أهل عصرنا به يرجع إلى العلامة السيد محمود شكرى الالوسى ، طبعه بنفقته فى مطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ ه ، وطبع فى مطبعته بنفقته أيضا بعض النفائس الادبية والتاريخية أذكر فى مقدمتها كتاب نزهة الالباب وغرائب الاغتراب رحلة أبى الثناء الالوسى فى القرن الثالث عشر الهجرى إلى استنبول .

---

(١) المستلم : هو الذى يقال له اليوم فى العراق « المتصرف » وفى مصر « المدير » .

(٢) أفدت هذا من السيد ابراهيم الشابندر عضو محكمة التمييز العراقية .

معالم سيرته

أثر بيأتيه العامة والخاصة فى تحديد وجهته :

هذا ما أحاط بمنشأ السيد الألوسى من أحوال عصره وسيرة أسرته ، وقد ألممنا بأوضح معالمهما ، فحدد وجهته فى الحيـــاة ، وأثر تأثيراً عميقاً فى مسلكه ، وليس فى مقدور الشاب الذكى الطامح الناشىء فى مثل عصره وأسرته أن يصنع غير ماصنع الألوسى لنفسه ، ولا أن يسلك سبيلا غير السبيل التى سلك ، فللزمان والمكان والمدرى أحكامها القاهرة التى لا تغالب ولا تدفع . وهو لو طلب غير ما قضت به هذه الأشياء مجتمعة من تحديد وجهته وتعيين مسلكه ، ما استطاعه بحال من الاحوال ، ولو أراد أن يكون على صفة غير الصفة التى نبغ بها ، لردته الحياة إلى طبيعة نشأته ونفسيته وظروفه . هذا إلى دأبه المطبوع على حب المعرفة واستكمالها ، وتجرده المطلق للعلم ، وعزوفه عن جميع حظوظ الدنيا سواه . كأنه كان يرى نفسه مفتقرة أبداً إلى الزاد الروحى والعقلى ، فسعى فى إغنائها به وتجميلها بحلية العلم والأدب والزهد ، واستغرق ذلك كل تفكيره وجهده ونشاطه حتى أنساه حظوظ نفسه الاخرى ، فعاش صرورة ، ولم يطاب نسلا ولا لذة ، ولم يجدّ وراء منصب . . وقد يكون مرد بعض ذلك إلى اقتصادياته ، وكرهه أن يتعرض لما تعرض له أبوه وناء به من غائلة « العائلة » ، وإلى ترفعه وإبائه ، وإلى شجاعته فى تحمل الوحدة بل أنسه بها ووجدانه اللذة كل اللذة فى طلب هذا العلم وحده دون سواه ، وفى الاجتهاد الدائم فى اقتباس أزواد المعرفة وإشراك الناس معه فى لذاتها ونتائجها .

طبع مغروس فى نفسه مجبول عليه ، كان طوع حكمه وأمره ، فجرى عليه منذ نشأ إلى أن لقى وجه ربه .

مولده ونشأته :

كانت ولادته فى دار جده أبى الثناء فى العاقولية بالرصافة ، بجوار جامع جمال الدين عبد الله بن محمد العاقولى مدرس « المستنصرية » المتوفى سنة ٧٢٨ ﻫ وهى يومئذ موئل جميع أبناء أبى الثناء وذراريهم ، كانت تشتمل على عدة دور لسكناه وسكنى أولاده ولاستقبال زائريه وطلاب العلم الذين كانوا يؤمونه من أنحاء العراق وكردستان . وفى رحاب دار الزائرين والطلاب عاش محمود شكرى طوال حياته فى وحدته المطلقة بين الكتب والمحابر والأقلام ، وفيها كان يستقبل زائريه وطلابه أحياناً كما كان يفعل جده أبو الثناء .

وكانت هذه الدار تعد من أكبر دور كبراء بغداد ، عرض لها رحمه الله فى كتابه « تاريخ بغداد » فألمّ ببعض أوصافها وذكر ما كان من ترميمها وما أرخه به الشعراء من شعر ، ثم أشار إلى ما آلت إليه فى عهده فقال : « وهذه الدار إلى اليوم ، ولله الحمد ، مشيدة البنيان ، رفيعة الأركان ، غير أنها قد أدركها سن الهرم ، وظهر عليها ما يظهر على عجائز الناس من الاعتلال والسقم . غير أن الأمر — كما قيل — « يفنى القميص وفيه عرف المندل » .

ولقد بيعت هذه الدار العظيمة — بعد وفاته — من جمعية أهلية ، فهدمتها وأنشأت فى موضعها مدرستين ابتدائية وثانوية ودار طباعة . وكان من حق العلم على الدولة أن تتملكها وترممها ولا تجعل سبيلا إلى التفريط بها وإزالة عينها من الوجود ، إبقاء على معالم العلم ، وتخليداً لمركز عظيم من مراكز الإشعاع خلّد مجد بغداد العلمى فى التاريخ الحديث ، كما تصنع الأمم الراقية فى تكريم أبنائها النابغين الذين يصنعون لها المجد ، لتبعث الهمم على التأسى بسير العظماء .

وكان مولد محمود شكرى الآلوسى فى هذه الدار قريبا من وفاة جده الحبر العظيم ، بينهما سنيّات ، وكان الحزن على بانيها وسيدها ما يزال مرنّقا عليها ،

يلقى عليها ظلال الكآبة والعبوس . فلما ولد فيها لابنه البكر عبد الله بهاء الدين هذا الوليد ، تهللت أساريرها بالبشر والغبطة ، وافتر ثغر الوالد الشاب الحزين على أبيه بابتسامة الفرح ، فأسرع وأطلق عليه اسمه (اسم أبى الثناء) تيمنا به ، وإحياءً لذكراه ، وحبا لترديده فى رحاب هذه الدار ، وتأميلا لامتداد مواهبه فى ذراريه ، ثم فزع إلى مذكراته ليؤرخ الحادث الميمون ، فكتب فيها :

ولد — والحمد لله تعالى — الولد الأغر المبارك المحفوظ بعين عناية الله السيد محمود ، المخلَّص بـ « شكرى » ، والملقب بـ « جمال الدين » والمكنّى بـ « أبى المعالى » ، صباح يوم السبت ١٩ رمضان — وكانت الساعة بالاثنى عشر ونصف (١) أو ثلث بعد الشمس بمقدار — سنة ١٢٧٣ ، ١٢ أيار » .

وقد درج الألوسى على تسمية نفسه « محمود شكرى الألوسى » ، وربما أضاف إليه فى مقدمات كتبه وخواتيمها «الحسينى» تارة و «الحسينى البغدادى» تارة، ولم أره قرن به لقبه ولا كنيته . نعم ، استعمل مرة كنيته وحدها أبو المعالى فى كتابه « غاية الامانى » تجنبا للظهور ، لأمر تطلبته أحوال خاصة من أحوال عصره .

* * *

مصادر ثقافته :

وصاغت الأقدار من حول هذا الوليد وفى داخل نفسه كل أسباب نبوغه: منحته الذكاء الوقاد والنشاط الحاد والطموح السامى إلى المجد ، وأتاحت له العناية البالغة من أبيه الذى تفرس فيه النجابة والألمعية فأنفق جهدهَ فى تربيته وتخريجه ، ووضعت نصب عينيه القدوة التى يأتسى بها والأمثلةَ الحية من إنتاج جده وأبيه وأعمامه تزخر بها خزائن كتب الأسرة فتذكى حاسته للاقتداء

(١) جرى على التعبير المعتاد الذى تجرى به الألسنة .

بعظماء أهل بيته وترسم خطا سلفه . . فتفاعلت نفسه والبيأة التى وجد فيها ، ودفعته إلى الجد والدأب فى سبيل حيازة الفضل دفعاً لاينى معه فى مطلب من مطالب المعرفة دون استيفاء حظوظه منه ، ولا ينتهى من غاية إلا ليرتاد غاية أسمى غيرها ، كشأن المطبوعين على حب الكمال فى السعى الدائم الذى لا يعرف التلبّث ولا يقف عند مطلب .

كان أول أساتذته وأكبرهم وأشدهم تأثيراً فى توجيهه والده العلامة عبدالله بهاء الدين الألوسى ، وقد دام جهده فى تكوينه وأخذه بانتهاج سبيله وسبيل سلفه فى الحياة العقلية والعلمية والأدبية إلى بلوغه السن الثامنة عشرة ، فورثه خلال هذه الأعوام كل ما استطاع توريثه إياه من علم وأدب ، ومن تجويد للخط وميل إلى الكتابة والتأليف، ومن زهد وسمت فى الصلاح ، ومن تصوف أيضاً . وقد قوى هذا الميل فيه إلى التصوف من بعد شيوخ آخرون ، فلزمه صدراً من شبابه . وكان تصوف أبيه – كما رأينا فى ترجمته – مصدره علل شتى نفسية وجسمية أورثته وساوس وخيالات خيلت إليه شفاءه به . أما تصوفه فكان نوعا آخر ، كان تصوفاً عقليا علق بذهنه لا بنفسه . وهو لم يعلق بنفسه ، لأن مزاجه كان من الأمزجة القوية التى تستعصى على الأوهام والمراسيم المصنوعة ، فكان فى أول أمره يؤمن بالتصوف ويكفر بشيوخه المعاصرين ، ثم لما اتسعت آفاقه العقلية والعلمية واستنار بحقائق الشريعة ، اطرحه جملة ، ولزم الزهد والورع على مراشد القرآن والسنة ومناهج السلف الأوائل الصالحين المصلحين فى العلم والعمل والاتباع والشموخ على المادة ، ولم ير فى الإسلام مكانا لهذا التصوف الدخيل .

وأخذ عن أبيه – بعد تعلمه القراءة والخط وقراءة القرآن الكريم فى الكتاب – مبادىء علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وغيرها ، والعلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير وأصول وعقائد ، وجوّد عليه الخط بأنواعه المستعملة لعهده بالعراق ، وكان الخط فى موضع العناية عند

الناس فى عصره ، واشتهر باجادتها ، وتميز باستعمال نوع خاص منه يقال له «التعليق» ودرج يكتب به بطريقته الخاصة ، وثقف منه طريقته التوضيحية السهلة فى التدريس والتأليف ، وهى فى جملتها تقوم على الإيجاز وجمال العرض والقصد إلى مادة العلم وأصوله فى مجانبة ظاهرة للطريقة المألوفة فى المدرسة القديمة من الاشتغال بالمماحكات اللفظية والإغراق فيها إغراقا تضيع معه مقاصد العلوم ولا يكون نصيب المتعلمين منها إلا الجهل بها . ومن هنا عقمت المدرسة القديمة التى اصطنعت هذا الأسلوب فى التدريس فلم تنتج شيئا باقيا ينتفع به ، وأنتجت المدرسة الألوسية إنتاجا خصبا قيما حين اهتدت إلى منهجها هذا وحين نظرت إلى العلوم والآداب نظرة تخالف نظرة المدرسة القديمة إليها واعتدّتها وسائل لا غايات وملكات لا صناعات . وحين عالجتها فى تعليمها من هذه الناحية ، فآتت أطيب الثمار ، وعقمت الطريقة اللفظية أن تنتج خيراً .

وتوفى أبوه قبل أن يستنفد ما عنده من علم ويفيد من كل ملكاته ، فكفله عمه أبو البركات نعمان خير الدين الألوسى (الذى أشرنا فى ترجمته إلى ما امتاز به من علم واجتهاد ومناهضة للتقليد ومناهج التصوف ودعوة إلى الرجوع فى فهم الإسلام إلى ينابيعه الصافية الأولى) ، وحاول أن يغرس فى نفسه بذور أفكاره ، ويعفى على الأثر الصوفى الذى علق بذهنه من أبيه ومن روح عصره فلم يتسع صدره لقبول ذلك منه ، واختلف معه ، فانصرف عنه ، وفى غرارة شبابه عذر لمثله يومئذ . لكنه على كل حال فارقه وقد تزعزعت ثقته بالتقليد وبهذا التصوف من غير شك ، ثم جاءته الأيام من بعد مبصرة بالحقائق فكان أشد منه حماسة فى مناهضة التقليد والتصوف وأعظم وطأة عليهما منه .

ولما كان لا بد لطماحه من إكمال علوم «الجادّة» التى لا يعترف عند القدماء بعلم عالم مالم يدرسها كلها ويقتلها علماً طفق يختلف إلى مشايخ العلم ببغداد وينتاب دروسهم مجربا ومختبراً ، فانتهى إلى شيخ صالح حافظ متقن يقال له الشيخ إسماعيل بن مصطفى الموصلى ، قدم بغداد إبان شبابه وتصدر للتدريس

فاشتهر عند طلاب العلوم الإسلامية . فلما سمع دروسه ، أعجب به إعجاباشديداً دفعه إلى أن يلزمه ويأخذ عنه علمه . وهو يترجم لأستاذه هذا فى « المسك الأذفر فى علماء بغداد فى القرن الثالث عشر » ، ويغرق فى وصف علمه وخصائصه إغراقا يفسر لنا سر إعجابه ولزومه له . وفى بعض ما يصفه به أنه « عدّة الطالبين ، وعمدة فحول المدرسين، مجلى مدلهمات المشكلات ، وموضح خفيات الإشارات ، الحائز لمرتبتى العلم والعمل ، والواصل إلى الله » . ويقول فى ورعه وما إليه من صفاته ومنازعه ، كان كثير الزهد والورع والعبادة ، كثير التهجد والاشتغال بالذكر . وكان حنفى المذهب ، نقشبندى الطريقة ، قنوعا صبوراً على مضض الدهر ، متواضعا للغاية ، بشوش الوجه . » وفى صفة تدريسه : « كان مبارك التدريس ، فانتفع به غالب من قرأ عليه » . وفى علمه . « كان لا يجارى فى النحو والفقه والتفسير والحديث وسائر العلوم الدينية كما أنه فاق فى الفنون العقلية ، حافظا القرآن . وحفظ طرفامن تفسير البيضاوى والكافية الكبرى من غير كلفة ولا تحمل مشقة ، بل بمجرد مروره على العبارة وكان فى علم الفرائض والحساب كالبحر العباب » وفى الجملة كان الرجل عالما حافظا ، كل علمه فى صدره وعلى لسانه . فإذا قرر دروسه ، أتى بعبارات الكتب نصا عن ظهر غيب لا يكاد يخل بشىء منها ، ولكنه لم يزاول التأليف والكتابة فلم يخرج من علمه إلى قلمه حرف ، وكان من ضعفه فى صناعة الإنشاء يكلف تلميذه هذا كتابة الرسائل عنه إلى أصحابه .

وقد توفى هذا الشيخ فى ٢٨ ذى الحجة ١٣٠٢ هـ ، أى حين كان الألوسى فى التاسعة والعشرين من عمره ، ولست أدرى كم لزمه ، ولكن من المؤكد أنه أخذ عنه أكثر علومه العالية ، وأفاد منه جل مكاسبه الرفيعة .

كذلك قرأ على شيوخ أجلاء آخرين قليلا أو كثيراً ، فأفاد علم مصطلح الحديث من العلامة المحدث الفقيه النحوى الشيخ عبد السلام الشواف من كبار تلاميذ أبى الثناء الألوسى ومن أئمة العلم الحفاظ المتقنين الأتقياء ببغداد

وقد ترجم له فى «المسك الأذفر» ووصفه بتذكرة السلف ونخبة الخلف ، وأثنى عليه بما شهر به من الفضل والتقوى والحفظ والاجتهاد فى التعليم والإرشاد ، وذكر له مؤلفات فى النحو والاستعارة والمواعظ وتعليقات وتقريرات .

وقرأ على الشيخ بهاء الحق الهندى نزيل بغداد طرفا من التفسير ، وقد وصفه فى «المسك الأذفر» بسعة الاطلاع على العلوم العقلية والنقلية عامة ، وعلم الأصول والحديث والتفسير والكلام خاصة ، وأنه كان فى حلّ الدقائق والمشكلات سباق غايات .

وذاكَرَ فى علم المنطق أشهر العلماء به فى عصره الشيخ المعمر عبدالرحمان القره داغى ، ذاكره فيه بعد أن توطن بغداد سنة ١٣٠٣ ﻫ ، أى بعد أن تجاوز الألوسى الثلاثين ، وللألوسى تقريظ على كتابه «تنبيه الأصدقاء فى التقليد والاجتهاد والاستفتاء والافتاء» (مطبوع ببغداد سنة ١٣٣١ ﻫ) أثنى فيه عليه ماشاء ، وفى كتاب «الأجوبة المرضية عن الأسئلة المنطقية» الذى نقد فيه الألوسى بعض قواعد المنطق شىء من آثار اجتهاد هذا الشيخ فى هذا العلم ، وقد كان إلى براعته فى علم المنطق عالماً بعلوم القرآن والتفسير والفقه والأصول والكلام ، وله فيها آثار حسنة .

وتوغل فى طلب ماتفرق من العلوم الأخرى عند الناس المعنيين بها ، فقرأ الهيأة والحكمة والعروض على عالم يقال له السيد محمدأمين الخراسانى الفارسى ؛ وتعلم اللغتين الشرقيتين الشائعتين لعهده — وهما التركية والفارسية ، ليفيد منهما فى حياته الفكرية والاجتماعية ، وقد كانت التركية لسان الدولة الرسمى ، والفارسية هى الرافد الثانى للغة التركية العثمانية بعد اللغة العربية ، وقد أفاد الألوسى من الفارسية ترجمة بعض الكتب فى علم الهيأة وفى الصراع العقلى بين بعض المذاهب الإسلامية وبعض .

من هذا وما إليه من أحواله التى فاتتنا معرفتها ، ندرك كيف كانت نفس الألوسى نفسا طلعة ، لا تنى فى طلب المعرفة ونشدان الكمال . لقد تقرّى أجلّ شيوخ العلم ، واستصفى أفضل ماعندهم وأكمله . ثم انتهت أيام تتلمذه للشيوخ ، لكنه لم ينته طلبه للعلم إلا من الناحية الشكلية فقط ، فقد ظل يطلبه من وجوهه الأخرى طوال حياته ، يطلبه فى مذاكرة خلصانه من العلماء والأدباء ، وكان من هؤلاء فى موضع المركز من الدائرة ، ويطلبه من خزائن الكتب العامة والخاصة،وقد عاش وهو يستنبث دفائن الفكر العربى الإسلامى . وكانت ببغـــداد لعهده ثمانى خزائن كتب عامة فى مساجدها حافلة بنوادر المخطوطات ، فنفضها نفضاً ، ونسخ الكثير منها ، وعلق الفوائد والفرائد ، ثم تجاوز جهده فى ذلك إلى خزائن كتب دمشق والقاهرة والمدينة ونجد واستنبول وغيرها ، واستعان على آرابه منها بتلاميذه ومريديه ومحبيه ، فكان يقتصد من راتبه الضئيل ويتبلغ بأقله ليوفر نفقات استكتاب الكتب من هذه الخزائن ونفسه طيبة بذلك ، ثم يقضى مايقضى من الزمن فى تحقيق ما يكتبه بنفسه أو يستكتبه وينفق ماينفق من جهد ليبلغ أربه من الاطلاع والرسوخ ويحقق لنفسه ماتصبو إليه من المكانة العلمية الرفيعة بين العلماء والأدباء .

بتلاميذه

بهذا المنحى ونحوه من مناحيه فى الجد والاجتهاد نبغ ، وزكت مواهبه ، وتعددت نواحيه ، وبز علماء عصره ، وتفرد فى جملة من الصفات الممتازة لم تجتمع لغيره من أعيان زمانه ، حتى لفت إليه علماء الأقطار العربية وغيرها فوصفه مثل العلامة السيد محمد رشيد رضا فى مجلة المنار الإسلامية الشهيرة بـ « عالم العراق ، ورحلة أهل الآفاق ، ناصر السنة ، قامع البدعة ، محيي هدى السلف ، حافظ فنون الخلف ، علامة المنقول ، ودراكة المنقول ، دائرة المعارف الإسلامية ، نبراس الأمة العربية » . وقال فيه : « كان إماماً يقتدى به فى علمه وعمله ، وهديه وآدابه وفضائله . وقف جميع حياته على علوم الإسلام وفنون اللغة العربية فى هذا العصر الذى قل فيه الاشتغال بالعلم والأدب فى

تلك البلاد بين أهل السنة وكاد ينحصر فى الشيعة » . ثم قال : « فبعد أن كانت بغداد فى عهد العباسيين عاصمة العلوم والفنون فى الأرض ، وكانت المدرسة النظامية فيها أول مدرسة جامعة فى العالم ، ثم بعد أن كان يوجد فيها فى كل عصر أفراد نابغون بجد الفقيد صاحب روح المعانى — رحمه الله — استقبلنا هذا القرن الرابع عشرة للهجرة من أوله فى الاشتغال بالعلم ، وصار لنا بنشر المنار وبالسياحة علم واختبار بأحوال الأقطار الإسلامية ، فلم نسمع للعلوم العربية والدينية على مذهب السنة صوتاً إلا من هذا الرجل ، لهذا لقبناه فى مكتوباتنا له بعالم العراق ... » .

وهذا حق فى جملته وتفصيله . وإذا كان الألوسى مدينا لعوامل الوراثة فى مواهبه ، فلا جرم أن الفضل فى إذكاء هذه المواهب وانتهائها به إلى بلوغ هذه القمة الشامخة إنما مرده إلى جده واجتهاده ودؤوبه على ذلك ماعاش ، وكم من مواهب ممتازة أضاعها الإهمال .

(١)

« دور العمل » — مدرس ومؤلف :

خُلِق الألوسى لكى يكون عالما ممتازاً يتقدم العلماء ويقود حركة العلم والأدب فى وطنه بعد ما قادها جده ثم أبناؤه من بعده .

هكذا خيل له تصوره واستقر فى نفسه وهو صبى ، فاندفع بعاملى العصامية والعظامية إلى العلم فى حرارة وقوة منقطعة النظير على النحو الذى أجملنا من صفة نشاطه فى طلبه له ، وتوفره عليه ، وتقصيه له من كل من يشيم عنده بارقة من الفضل فى علم من العلوم الشائعة فى عصره ، من علماء وطنه ومن الوافدين عليه من علماء كردستان وفارس والهند أخذاً واقتباسا ومذاكرة .

وكانت تتأجج فى صدره رغبة عنيفة فى خدمة وطنه ، كان منها باعث آخر دفعه إلى الانكباب على العلم وإنفاق حياته فى تحصيله بإدمان الدرس والمطالعة والمناقشة والنسخ والبحث والتحقيق ومذاكرة العلماء والأدباء فى مضاء شديد لا سبيل للوناء إليه وعزيمة مشحوذة الغرار لا تكل .

وقد ظهرت هذه الرغبة عنده مبكرة إذ هو طالب ناشىء ، فاتجه فى وقت واحد إلى وجهتين رآهما كفيلتين بتحقيق هذه الرغبة ، هما التدريس والتأليف ، فلزم عموديهما : لم ينحرف عنهما طوال حياته ، ولم يتطلب حظا غيرهما من حظوظ الدنيا ، إيمانا بعظم المطلوب وأنه إذا زوحم بشواغل عمالات الدولة من دينية ودنيوية لا تبلغ منه غايته .

وقد فطن منذ أن نجم فى طلب العلم لأثر البحث والتدريس فى رسوخ الدراسات ونمو الملكات ، وأن الوقوف عند حدود ما يتلقاه عن شيوخه من

علم وأدب لا يغنيه شيئا ولا يجديه فى تحقيق مايطمح إليه من منازل الكمال وما يرغب فيه من خدمة وطنه بهاتين الوسيلتين .

فهو قد علم أن جده أبا الثناء بدأ بالتأليف فى الثالثة عشرة من عمرة ، وتصدر للوعظ والتدريس ناشئا صغيراً ، فنبهه ذلك لما نذكر ، فاذا هو يبدأ بالتأليف فى الحادية والعشرين من عمره فيضع باكورة رسائله وكتبه فى سنة ١٢٩٤ هـ ، ولم ينتظر أن تأتيه وظيفة التدريس ليعلم الناس ما تعلمه ، فهى يومئذ غاية تتقطع دون بلوغها الأعناق ، لأنها أعلى مرتبة يتطالّ إليها الراسخون ، فانتظاره لها يباعد بينه وبين تحقيق رغبته ، فأخذ يقرأ — بالمجان طبعا — فى داره وفى جامع لإحدى زوجات الوزراء المماليك ببغداد يقال لها عادلة خاتون .. دروسا فى كتب مختلفة فى مبادىء علوم العربية والعلوم الإسلامية لطائفة من الطلبة توسموا فيه النبوغ والكفاية فأقبلوا عليه .

ثم جاءه التدريس الرسمى بعد أن جاوز الثلاثين قليلا واشتهر رسوخه ، فنصب مدرسا فىمدرسة داوود باشا آخر الوزراء المماليك ببغداد ، ثم أضيف إليه تدريس مدرسة السيد سلطان على ، ثم وجهت إليه فى سنة ١٣٤٠ هـ مدرسة مرجان الشهيرة التى قدمنا من خبرها أنها كانت مشروطة لأعلم أهل البلد ، وكان يطلق على مدرسها نعت «رئيس المدرسين» ، فجمع بينها وبين مدرسة داوود باشا ، وترك الأخرى لابن شقيقته .. فكان نهاره كله من شروق الشمس إلى غروبها ، إلا سويعات منه مصروفا فى تدريس هذه الثقافة العربية الإسلامية وإتاحتها لقاصديه على نحو من الجدة والتنويع لفت إليه أنظار الطلاب الأذكياء من البغداديين ، فقصدوه ولازموه وتخرجوا به ونبغوا على يديه ، وقد أفادوا أفكاره فى الإصلاح الدينى وحفاوته باللغة العربية وآدابها وميله إلى البحث والتأليف والتحقيق والنشر ، فجروا معه أشواطا بعيدة فى مذاهبه هذه التى تفرد بها بين علماء العراق فى عصره ، فإذا هم يذيعون دعوته إلى الإصلاح الدينى ، ويعنون بالبحث والتأليف والنشر ،

ويبسطون شعاع الادب على هذا الافق ، ويفجرون ينابيع الشعر والنثر على نحو لم يكن مألوفا من قبل ، فتزدهر دولة البيان ، ويجددون هذه الثقافة العربية الإسلامية ويمدون أديمها على هذا الصعيد العربي مدا لا نعلم متى كان يتاح لهذه البلاد لو لم ينبغ فيها هذا الذكى الالمعى الهمام .

ثم كان تلاميذه وقاصدوه — إبان اشتهاره وذيوع اسمه فى الآفاق — صنوفا من أجناس الناس كانوا يرحلون إليه من أنحاء العراق ومن الكويت ونجد ومن أوربة ، فيأخذون عنه ، ويفيدون من توجيهاته ، ثم يعودون من مشارعه الروية مخصبين مقرين بفضله معترفين بإحسانه ، كالذى نجده من هذا فيما تحدث به المستشرق الفرنسى لويز ماسينيون (L. Massignon) ، وكان تتلمذ له فى سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٨ م فى محاضرة حاضر بها فى معهد الحقوق بدمشق سنة ١٩٢٠ م ، ونشرت فى مجلة المجمع العلمى العربى ١/٢٤٠ بعنوان «ملتقى الأديين» ، فقال : «... وأتذكر الآن من ساعدونى من إخوانكم المسلمين . ولن أنسى أبدا الشيخ محمود شكرى الألوسى وابن عمه الحاج على ، فهما ساعدانى مساعدات أخلاقية مهمة ، وأفهمانى أهمية ملتقى الاديين الشرقى والغربى ..» وقال أيضا من كلام مسهب نشره فى مجلة العالم الإسلامى الفرنسية (Revue de monde Musulman).

«ولا أزال أقر بفضل الألوسيين لما تفضلا به على من الإفادات الجلى والنصائح الكبرى والوثائق التى كانا يحولانى عليها للوقوف على ما جاء فى كتب القوم عن الحلاج ذيالك الصوفى البغدادى الشهير ..»

أما شهادات تلاميذه البغداديين بفضله عليهم وعلى العلم والأدب فكثيرة جداً ، يأتى فى طليعتها قصائد محي دولة الشعر فى العراق معروف الرصافى التى سيرها فيه حيا وميتا .

وكان مصدر هذا النجاح الذى حازه الالوسى أشياء هدته إليها ألمعيته ، فنظر إلى العلوم والآداب على أنها وسائل لا غايات وملكات لا صناعات ،

ونقح طرائق التدريس ، وطلب اللباب من كل علم وفن ، وتجنب الاشتغال بالمناقشات والمماحكات اللفظية التي تنسج حول التعريفات والمصطلحات فتصرف المتعلم عن حقائق العلوم ، وتناغى بالإصلاح الديني ، وعنى بالبحث والنظر والاستدلال ، وصرف الهمم إلى الجمع بين العلم والعمل ، وحض على التأليف والتحقيق والإنتاج فى الشعر والنثر . . فباين بهذا المنهج الجديد الحافل بضروب الاتجاهات الإصلاحية والعملية المنتجة المثمرة مناهج أهل عصره التى استقرت على التقليد وعلى الاقتصار على كتب بعينها لا يتجاوزونها إلى غيرها ، مكتفين منها بالحدود المرسومة من حفظ عباراتها الاعجمية المعقدة وترديدها نصا كأنها تنزيل من « التنزيل » الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، غير مرتادين لطلابهم معرفة جديدة ، ولا مذهبا من مذاهب العلم والادب مثمراً إنتاجا يجدى أربابه ويجدى الناس ، فكان لحنهم دائما لحنا واحداً يرددونه على الايام لا يحسنون سواه ، ووترهم وتراً واحداً أيضا لا يكادون يفكرون فى إضافة أوتار أخرى إليه تقويه وتشد منه وتعطيه البهجة والحياة . ومافات هؤلاء جميعا من هذا كله ، تداركه الالوسى وحده ، فأغنى وأقنى وأمتع ، وهذا هو النبوغ أو هو معنى من معانيه .

الإقتصار

(٢)

نبوغه فى التأليف وقصة فوزه بجائزة ملك السويد والنرويج :

ويأتى المظهر العملى لنبوغ الألوسى فى التأليف ، فى أوائل مرحلة حياته العملية ، وذلك حين بلغ الثلاثين من عمره ، بوضعه كتابه الكبير (بلوغ الأرب فى أحوال العرب) ، وفوز هذا الكتاب فى مباراة أسكار الثانى ملك السويد والنرويج بالجائزة ، وهو فوز سجل به الألوسى الشاب مظهراً جديداً للعبقرية العربية كسب إعجاب الغرب ، ودلّ الغربيين وغيرهم على المواهب التى ما يزال العرب يتمتعون بها ، تتحدر بها أصلابهم من جيل إلى جيل ، وكان الألوسى فى ذلك أول عربى يظفر بجائزة لعلمه من أوربة فى تاريخ اتصال العرب بالغرب فى هذا العصر الحديث ، لا أعرف عالماً عربياً آخر غيره ظفر بعده بجائزة من أوربة حتى اليوم .

وموضوع هذا الكتاب ليس من الموضوعات الثقافية التى أتقنها الألوسى وعرف مواردها ومصادرها فى دور إعداده ، ولا هو مما كان يعنى بمثله أهل عصره ولا غيرهم ممن تقدموهم فى الزمن ، ولا هو كذلك من الدراسات التى عبدت مسالكها وقتلت بحثاً وألفت فيها الكتب على نحو مشهور المعالم معروف الأوضاح ، فلسنا نعرف من مئات المؤرخين وأصحاب الأخبار فى أثناء التمدن الإسلامى كما يقول زيدان واحداً أفرد كتاباً خاصاً فى هذا الموضوع يُسنّى لباحث سلوك جادته .

فكيف سهل على الألوسى الشاب تأليف هذا الكتاب الممتاز فى موضوع لم يتلق أصوله من أحد من قبل ، وليس فيه سابقة لمؤلف قبله ، وموارد ثقافته ومصادرها ما قد علمنا فى دور إعداده ، ثم هو إلى ذلك كله ما يزال فى روق شبابه وبداية نضجه العلمى لم تكتمل له بعد أدواته من المعرفة

الواسعة فى العلوم الاجتماعية على مايظن فيمن يكونون على مثل نشأته الثقافية؟

وهذه الأسئلة لا يغنى فى الإجابة عنها رد ذلك إلى نبوغ الألوسى فلا بد للنبوغ من عوامل تذكيه وتسدده وتمنحه القدرة على الإثمار ، ويبدو لى فى تحديد هذه العوامل وتعينها أن أتذكر مارويته من قبل من طموح الألوسى وتأبيه أن يقف عند حدود ما تلقاه فى دور إعداده من علم ، ومن شدة اجتهاده فى طلب أفانين من المعرفة ترضى طموحه ، وأن أضيف إلى هذا شيئاً آخر قام فى نفسه من غير شك ، ودعاه إلى درس تاريخ العرب وتأمله قبل أن تثيره الدواعى إلى الكتابة فى قسم منه ، حتى إذا توفرت هذه الدواعى له كانت أداة الكتابة موفورة فى نفسه وفى عقله ، ومن المعلوم بالبداهة أن التوفيق فى أمر لا يتسنى بمجرد الرغبة فيه ، ولكن لا بد من استعداد الطبيعة له ومن إعداد أسبابه ووسائله . . وذلك الذى قام فى نفس الألوسى وسنى له هـــذا التبريز فى تأليف كتابه هو ما أعلم من حبه للعرب وفنائه فى هذا الحب ، ومن إرادته الخير لهم فى حاضرهم ومستقبلهم وحرصه على تحقيق هذه الإرادة بطلب ما ينبغى لهم من حياة جديدة راقية غير الحياة التى يحيونها فى حاضرهم ، يتمثل فيها سالف المجد العربى ، وتضعهم من التاريخ الحديث فى المكانة التى وضع سلفهم الصالح نفسه فيها من التاريخ القديم .

* * *

ولنسجل هذا الحادث الخطير فى حياة السيد الألوسى كما سجله فى كتابه «بدائع الإنشاء» على نحو من التصرف الذى تقتضيه طريقتنا ولا يخل بالأصل.

وهو يبدأ برسالة افرنجية يتلقاها من أمين سر لجنة اللغات الشرقية الدكتور الكونت كرلودى لندبرج ، وبيان باللغة العربية معنون بجملة : « جوائز الملوك ملوك الجوائز » يتضمن وصف ما يتمتع به أسكار الثانى ملك السويد والنرويج من علم ومن حب له وتشجيع على كشف المجهولات

الجغرافية ، وما يرغب فيه من كتابة تاريخ العرب قبل الإسلام وإعداده جائزة لمن يؤلف فيه ، وشروطه فى هذا التأليف الذى وكل الأمر فى الدعوة إليه والنظر فيه إلى لجنة من أغاظم علماء المشرقيات فى أوربة ، وكتابه إلى هؤلاء وتنبيهاً من اللجنة للمؤلفين ، وإعلانا من محل بريل فى ليدن يتعهد بطبع الكتاب الفائز على نفقته ، ويذكر ما يدفعه إلى المؤلف من الأموال .

وهذا نص ذلك :

جوائز الملوك ملوك الجوائز

بشرى للمعارف وأنصارها ، وهنيئا لمن يسعى فى إعلاء منارها وتخليد آثارها ، ورعيا لها ولمن رعاها ، « وقد أفلح من زكاها » . فما المرء إلا بالمعارف والآداب ، « وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » ، نعم ، فقد تذكروا وعلموا أن هذا العصر هو عصر النور ، وما أجدره أن يسمى بإحياء العلوم ، فقد انتشرت فيه المعارف إلى حد لم يكن ليخطر بالأذهان وصولها إليه . وما ذلك إلا نتيجة فرط جد واجتهاد ، أفضت إلى نيل المراد . ولا أشك أن الأعمال بحسب الهمم ، و « على قدر أهل العزم تأتى العزائم » ، فمن سمت همته ، وشرفت عزيمته ، فذلك الذى تشير إليه أكف المعالى بالبنان ، ويتربع صدراً فى مجالس التواريخ بين مادونه من جلائل الأعمال ،

وهذه سمة صاحب الجلالة ملك دولة السويد والنرويج (أسكار الثانى) ، فإنه لم تلهه أبهة الملك ولا عزة السلطان عن توجه مقاصده السامية إلى ما هو جدير به من المساعى المشكورة ، والمآثر المأثورة المشهورة .

وغنى عن البيان أن أعلى صنوف المعالى وأولاها بالعناية هو العلم ، وكفى بلفظه دليلا عليه ، فلذلك رأى هذا الملك السعيد — أعزه الله — أن يأخذ

بناصره ، ويساعد أربابه على نشره من أى جنس وعلى أى معتقد كانوا ، فطالما غمرهم بالمعروف وشملهم بالرعاية .

وكفاه افتخاراً ما بذله من العناية بالسيد نور دينشلد ، حيث كافه — والنفقه من الجيب الملوكى الخاص — أن يطوف البحار لاكتشاف بعض المجهولات الأرضية ، فخاض غمراتها ، حتى أنهى دورته بعد سنتين ، اكتشف فى أثنائهما من الجزر والبلدان ما أصبح فى هذا الزمان شمسا منيرة فى أفق الجغرافيا بعد إظلامه .

ومع ذلك فإن لجلالته من المؤلفات العديدة ما صار به جامعا لطرفى الشرف من العلم والسلطان .

وقد رأى ، ورأيه الموفق ، أن يُعد جائزة لمن يؤلف كتابا فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، حيث إن حالتهم الجاهلية إذ ذاك لا تعلم اليوم تمام العلم . والشرط فى هذا الكتاب أن يكون مشتملا على بيان عوائدهم فى المأكل والمشرب والزواج ، وكيفية مجتمعاتهم ومفاخراتهم ، وحروبهم ، وأفراحهم وأعيادهم ، ومعتقداتهم ومتعبداتهم ، وسائر أعمالهم فى تلكم الأيام التى جبّها الإسلام ، وأن يظهر الفرق بين حالتى المتحضرين والمتبدين منهم ، وكيف كانت حالة مكة إذ ذاك ، وبأية وسيلة أمكن لهم فى زمن قصير أن يتقدموا هذا التقدم السريع ، ويتغلبوا على عدة ممالك واسعة ، وأقطار شاسعة ، يبلغ سكانها أضعاف أضعافهم مراراً عديدة ، حالة كون بلادهم حارة مقحطة قفراء (؟) خالية من بواعث المدنية ، وهل بقى من آثارهم القديمة شىء بين من يسكنون البوادى اليوم ويدعون بالعرب ، مع إقامة الأدلة الكافية والإتيان بالمستندات القوية لإثبات كل أمر منها تفصيلا .

وقد عين للنظر فى ذلك لجنة من أعاظم علماء المشرقيات فى أوربا ، وكتب بذلك خطا ملوكيا لبعض أعضائها . وستنظر اللجنة المذكورة فيما يقدم إليها فى ذلك الموضوع إلى آخر يناير سنة ١٨٨٨ ميلادية . فأى كتاب حكمت بأفضليته على الجميع ، فصاحبه صاحب الجائزة المبينة فى الأمر الملوكى ، وهذه ترجمته ملخصا :

« لما كان جل رغبتى منحصراً فى نشر ما اشتملت عليه لغات الأمم الشرقية وتواريخها من المعارف ، لما لها من الأهمية العظمى فى تاريخ التمدن الإسلامى ، وكان ذلك غير معروف تمام المعرفة ، اعتمدت الإعلان بأنى سأمنح من يؤلف أحسن تأليف فى حالة تمدن العرب قبل الإسلام بألف وسبع مئة وسبع وثمانين فرنقاً . ونيشاناً ذهبياً قيمته ألف وأربعمئة وثلاثون فرنقا تقريبا ، وتكون صورتى منقوشة على إحدى صفحتيه ، وعلى الثانية اسم المؤلف الذى أخذ الجائزة واسم تأليفه المُجْزِىّ عليه . وقد وكلت العلماء الآتية أسماؤهم فى تشكيل لجنة من أنفسهم للبحث فيما يقدم لها من التآليف فى هذا الخصوص ، وهم(١) والكونت لندبرج مع كونه عضواً من اللجنة المذكورة فهو كاتب أسرارها . وإذا طرأ على أحد الأعضاء ما يوجب تخلفه . كأن أراد هو أن يؤلف كتابا فى هذا الموضوع ، أو فجأه مانع آخر ، فاللجنة تختار من تشاء بدله ، وعليها أن تقدم لى قبل انتهاء سنة ألف وثمان مئة وثمانى وثمانين بما رأته فى المؤلفات المقدمة لها مع عرض اسم المؤلف الذى يمتاز بالجائزة » .

حرر فى قصر استكهلم فى شهر يناير ك ٢ سنة ١٨٨٦ موافقه ١٣٠٢ .

أسطر

تنبيه من اللجنة :

على المؤلف أن يستند فى استخراجاته على الأشعار القديمة وما تتضمنه من ذلك الأحاديث النبوية والسير والتواريخ الصحيحة والعهد القديم ، وعليه أيضا أن يقدم مؤلفه مطبوعا أو غير مطبوع لقنصل دولة السويد والنرويج فى البلد الذى هو به ، ويطلب منه إرساله إلى الكونت كرلو لندبرج بالعنوان المحرر أدناه .

---

(١) أسقط الألوسى أسماءهم .

فيا رجال الأدب ، وعلماء العرب ، نبهوا أقلامكم من الرقود ، وانشروا لهذا الأثر الجليل مطوىّ البنود ، وكيف ، وأنتم أبطال المعارف ، تتقاعسون؟ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

إعلان من محل السادات بريل فى لَيْدِن

يتعهد المحل المذكور بأن يطبع على نفقته فى مطبعته الكائنة بمدينة ليدن من مملكة هولندة المؤّلف الذى يأخذ الجائزة صاحبُه ، وأن يدفع للمؤلف عن كل ست عشرة صفحة مئة وخمسة وعشرين فرنقا . فإن كان الكتاب مهما فى نفسه ، ولكن فضله غيره بالجائزة ، فإنه يطبع أيضا ، غير أنه لا يدفع لصاحبه شىء .

عن اللجنة

الدكتور الكونت كرلودى اندبرج

وحين تلقى الألوسى الشاب هذه الدعوة ، وتأملها ، أعجبه المطلب المقترح غاية الإعجاب ، ونفر منه وترعصبيته للعرب .

لكنه تردد فى بادىء الأمر فى التصدى لتأليف الكتاب ، لأمر واحد قام فى ذهنه ، هو ملاحظة أن يظن به الطمع فى جائزة الكتاب ، وما فى نفسه الكبيرة غير الترفع والزهد . غير أن خلصانه كما يقول صرفوه عن تخيل هذا الخاطر ، وشوقوه إلى وضع هذا الكتاب ، لأن إعلاء شأن العرب لا يمنعه مانع ، ولا يقوم فى تركه سبب. فانصاع لرأيهم ، وعكف على تأليف كتابه (بلوغ الأرب فى أحوال العرب) خلال المدة المحددة فى كتاب التكليف ، مراعيا فيه الشروط السابقة مع زيادات لم تكن بالحسبان ، حتى استوى له فى أقصر مدة ثلاثة مجلدات ، فرغ من تسويدها فى غرة جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤ ه ، وقدم الكتاب إلى اللجنة المذكورة ومعه هذه الرسالة :

« بسم الله خير الأسماء »

إن ما طلبه الملك المعظم بين الملوك ، والسالك فى تدبير أمر رعيته أحسن سلوك ، السابق فى ميدان المعالى جواد همته ، والفاتك بالسمهريات العوالى ماضى عزيمته ، الذى اقتص من عوادى الأيام ما جنته على الكمال من العطب ، وافتضّ بسواد الأقلام أبكار الأفكار من غوانى الأدب ، وهو أن يؤلف له كتاب ، ببديع خطاب ، يشتمل على جميع أحوال العرب ، وبيان ما كانوا عليه قبل أن يكشف نورُ بدرِ الإسلام عنهم الغيهبَ ، فقد اتبعت مارسم ، وانتهيت إلى ما قصد ويمّم ، حيث لم أجد لى عذراً فى الوقوف دون غرضه ، ولا ما يسهل على الإخلال بكل مارامه ولا ببعضه ، لما أن ولىّ أمرنا — أيد الله تعالى دولته وأعلى فى الخافقين صيته وسطوته — قد أحسن إمتاع العلم وأعز أهله ، وما زال مأوى لهم وله ، إن أظلم شق منه كان لهم فيه سراجا ، أو طمس منار له وجدناه إليه منهاجا ، أو قعد غيره عنه قام بأعبائه ، مراميا عن حوزته من أمامه وورائه ، متقيّلا آثار أسلافه الغر الأطايب ، الذين خصهم الله تعالى بأرفع المراتب ، وانتضاهم من سلالة النجباء والنجائب ، فاستوجب مرعىّ ذممه ، ووكيد عصمه ، أن يفيض معروفه على كل سائل ، ويصل نائله لجميع الساحات والمحافل ، فبادرت فى الحال ، لإنجاز ذلك المطلوب البديع المنوال ، فحررت ما حررت ، وقررت ما قررت ، مما بلغت فيه — بحمد الله تعالى من ذلك — فوق قدر الكفاية ، وحزت بتوفيقه سبحانه قصب السبق إلى الغاية ، واجتنبت مع ذلك الإسهاب الممل ، والإيجاز المخل ، بعبارات رشيقة ، ومعان رقيقة ، مما أرجوا أن يكون محطا للأنظار الملوكية ، ومطمحا لعين عنايته الإكسيرية ، ولا سيما وقد ألف على اسمه ، وصنف على حسب توقيعه ورسمه .

والمرجو من الأفاضل الذين عينوا للنظر فيما يقدم فى هذا الباب ، وانتخبوا للتدقيق فيما يرد عليهم من أقطار الأرض من رسالة أو كتاب ، إذا وقع كتابى هذا لديهم موقع الاستحسان ، وامتاز عن غيره من الكتب

المؤلفة فى هذا الشأن ، أن يعتنوا بأمر طبعه ، ويبذلوا الهمة فى تصحيحه وحسن وضعه ، ولا سيما فى التعظيمات التى أوردتها فى شأن سادات الأمة ، وأكابر الأئمة ، من تصلية وترض ودعاء بالمغفرة والرحمة . فلطالما تحرفت الكتب فى المطابع ، وتغيرت إلى ماتمجه المسامع ، ولهم بذلك الذكر الجميل ، والثناء الجزيل ، والفضل الجليل .

كتبه الفقير إليه تعالى

السيد محمود شكرى البغدادي

فكتب إليه الكونت كرلودى لندبرج ينبئه بوصول كتابه إلى اللجنة فى « أستكهلم » ويطريه :

« حضرة الاستاذ الفاضل السيد محمود أفندى شكرى الالوسى البغدادى حفظه الله :

السيد — أدام الله زينه ، وأقر بالمسرة عينه ، وأجرى بالحكمة أقلامه ، وثبت فى مواقف المعارف أقدامه ، وأطلع من بدائعه فى سماء الأدب بدراً منيراً ورفع له فى ملأ العرفان ذكراً كبيراً — وردنا مؤلفه الموسوم بـ(بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب) ، فسرنا صنيعه المحمود ، وبشرنا بنوال المقصود ، إذ تبينا منه غيرة مؤلفه — حفظه الله - على العلوم — وتصديه لنشر ما هو منها مطوى مكتوم . كيف لا وموضوعه من الأهمية بمكان ، لا يقوم بالتعبير عن جلالته اللسان ، فالعرب هم من عرفنا رجال اللسن والفصاحة،ومظهر الكرم والسماحة ، حميتهم مشهورة ، وحماستهم غير منكورة ولكن ، وأسفاه ! لو يجدى الأسف ، على ما آلم لما أمّ بأحوالهم من التلف فإن جب الإسلام ما قبله ، استلزم بالمرة جهله . خصوصا وقد اشتغل أهل القرن الأول وبعض الثانى بالغزوات والفتوح ، لما وجدوه فى أنفسهم من حلاوة الإيمان الممنوح . فتلقوا ذلك بصدر رحيب ، وقابلوا الكفار من

القتال بكل نوع عجيب ، حتى استقام عماد الدين ، وذلت أعناق المضادين ، فكان ذلك عن التأليف شغلا شاغلا ، وحجابا عن الاهتداء إلى سابق الامور حائلا ، لأن النفس كما لا يخفى على البصير الناقد لا تقوى على شيئين فى آن واحد . ثم جاء الخالفون ، فدونوا ما وصل إليهم من الأنباء ، إلا أنهم حفظوا شيئا وغابت عنهم أشيئا ، فإن فى مئتى سنة ما يكفى لضياع أكثر الأمور ولا سيما إذا تعذر الوصل وتباعدت الدور .

فنحن نشكر السيد على هذه الهمة المحمودة ، والغيرة العلمية المشهودة ، فلا شك أنه أجهد نفسه فى البحث والتنقاب ، حتى استخلص من بين تلك القشور ، ذلك اللباب ، فهكذا تكون الهمم ، ولمثل ذلك فليعمد رجال الحكم .

فأما الكتاب المذكور ، فسنتروّى فيما جاء ضمنه ، ثم نبعث به لإخواننا أعضاء اللجنة ، مؤملين أن سيحظى بالقبول ، ويعامل من الرضى بما هو المأمول .

هذا وإنا ليسرنا كل مؤلف مهما كان موضوعه ، فكيف بكتاب الاستاذ وفضله شفيعه ، فليطلق لهمه عنانها ، وليقوم من غيرته سنانها ، ثم ليطعن فى نحور الجهالة برماح أقلامه ، حتى تتألف دولة متبدد الأدب مستظلة بأعلامه . لا زال للخيرات موفقا ، وللآمال فيه محققا ، والسلام عليه ورحمة الله » .

تونس فى ٤ يوليو سنة ١٨٨٧ م

الكنت كرلو دى لندبرج

وحين حل موعد النظر فى الكتب المقدمة إلى اللجنة ، لتعيين مستحق الجائزة منها ، عقد مؤتمر برئاسة الملك أسكار الثانى نفسه ، شهده طائفة من علماء المشرقيات ، ومندوب من « الحضرة السلطانية » ، وهو الأديب التركى المشهور أحمد مدحت أفندى أحد رجال الدولة العثمانية ، (١) وقد سجل وقائع هذا المؤتمر تفصيلا فى كتاب خاص به .

---

(١) أنظر ترجمة فى دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة العربية ، ٤٩٧/١ الطبعة الثانية .

وكانت الكتب المقدمة كما ذكر الكونت كرلودى لندبرج فى رسالته إلى الألوسى كثيرة العدد ومختلفة المصادر شرقا وغربا . من أوربة ومصر والشام والعراق وغيرها ، فنوقشت مناقشة دقيقة فى عدة جلسات إلى أن أسفرت عن اتفاق كلمة المؤتمرين على تفضيل كتاب السيد الألوسى على جميع الكتب المقدمة إلى اللجنة . فمنح مؤلفه الجائزة ، وهى وسام من الذهب ، وقرر طبع الكتاب بنفقه الملك أسكار .

ثم أرسل الوسام إلى السيد الألوسى مشفوعاً برسالة بليغة صادرة من القاهرة فى ١٢ شهر ربيع الأول سنة ١٣٠٧هـ بإمضاء الكونت كرلودى لندبرج قنصل السويد والنرويج العام فى مصر ووكيلها السياسى، تحمل إليه بشارة فوزة بالجائزة وقرار طبع كتابه .

وهى :

« حضرة العالم الفاضل السيد محمود شكرى افندى أعزه الله .

أيد الله الأستاذ ، وشرح بالمعارف صدره ، ورفع بالكمالات قدره ، ولا زالت تحييه المعالى ، وتخدمه بأبيضها وأسودها الأيام والليالى . نكتب إليه وفضلُه لدينا أظهر من الظور ، وأشهر من كل مشهور ، معتقدين أنه يُسَرّ بما نتلوه عليه ، إذا ألقى بمقاليد سمعه إليه ؛ وذلك أن كتابه (بلوغ الأرب) جليل فى بابه ، وقد استحق التقدم على أضرابه ، فإن جميع الكتب التى وصلتنا فى هذا الصدد ، مع ما بلغت إليه من كثرة العدد ، واختلاف مصادرها شرقاً وغرباً ، وبُعداً وقرباً ، من أوروبا ومصر والشام والعراق ، وغيرها من الآفاق ، لم يحصل سواك من أربابها أحد على تلك الجائزة التى سبق بها الوعد ؛ لأن الموضوع واديه عميق ، بعيد الطريق ، غير أن كتاب الأستاذ مع ذلك أجمع الكل مادة ، وأوسعها جادة ، فلذلك أنعم عليه صاحب الجلالة مولانا ملك السويد والنرويج بـ « نيشان » من الذهب ، أخضر العلاقة

لا أخضر الجلدة من بيت العرب . وهذا « النيشان » لا يناله إلا عالم فاضل، قد خصص به الأستاذ دون سواه على كثرة الآمل، فليجعل صدره له حلية، وليفخر به على نظرائه فإنما يحسن الفخر على العلية ، وليعلم أننا قد عزمنا على طبع ذلك الكتاب ، تخليداً لمآثر صاحبه فى خزائن الآداب (١) ، فلينشط لمثله همته ، وليجرد على أعناق الخمول عزمته ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته » .

القاهرة ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٠٧ هـ

الكونت كرلودى لندبرج
قنصل السويد والنرويج العام فى مصر ووكيلها السياسى

هذا الفوز الذى أصابه السيد الألوسى فى هذه المباراة التاريخية التى حفلت بها الصحافة العالمية على اختلاف لغاتها ومواطنها ، ونشرت الفصول الضافية فى إطرائه وتقريظ كتابه .. عرف الخاص والعام بفضله ومواهبه ، وشهره فى الآفاق ، حتى جعل إليه الرحلة من الأقطار وهو ما يزال فى عنفوان الشباب، فوفد عليه الطلاب من الجهات البعيدة ليقرؤوا عليه ، وراسله العلماء والأدباء من العراق والشام ومصر ونجد والمغرب الأقصى والهند وأوروبة رغبة فى الإفادة من علمه ، وقد جمع السيد الألوسى بضعة مجلدات من هذه المراسلات الحافلة بالفوائد والمتع تكشف عن مدى صلات علماء عصره به وتوضح مكانته الرفيعة فى نفوسهم ، وكان من آثار استحسان الناس لكتابه وعنايتهم

---

(١) قارن هذا النص الرسمى بقول جرجى زيدان فى مقدمة كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » : « .. تبرع المغفور له أسكار الثانى ملك إسوج منذ نحو عشرين سنة بجائزة سنية تمنح لمن يؤلف أحسن كتاب فى « العرب قبل الإسلام » فتصدى لإجابة الاقتراح غير واحد من أرباب الأقلام ، وعرضوا مؤلفاتهم فى الوقت المعين على اللجنة المنوط بها فحص تلك المؤلفات وتعيين مستحق الجائزة منها ، فقررت أنه ليس بينها كتاب يستحقها على مقتضى الشروط المطلوبة لكنها اختصت كتابا منها بالذكر ألفه السيد محمود الألوسى ، فضلته على رفاقه ، وأجازت لصاحبه نشره ، فنشره فى ثلاث مجلدات ، واعتبر نفسه نال الجائزة » !!!

به أن تصدى لترجمته إلى اللغة التركية أديبان من أعاظم شعراء العراق وكتابه، وكلاهما من خلصان المؤلف وأصفياء مودته ومكبري قدره، وهما عبد الحميد بك الشاوى الحميرى ، وأحمد عزة باشا العمرى الموصلى . وقد حمل الأول على الترجمة سرى باشا الكريدى والى بغداد من فرط إعجابه بالكتاب ، فترجم طرفاً منه، وسمى ترجمته « منتهى الطلب فى ترجمة بلوغ الأرب » ، ونشر مقدمته فى جريدة الزوراء » ، ثم عاقته المنية عن إكماله . أما ترجمة أحمد عزة باشا العمرى ، فالمظنون أنها صارت طعمة نار شبت بداره فى استنبول .

---

(٣)

عالم صحفي :

ودعي السيد الألوسي في أوائل حياته العملية ، وهو في الرابعة والثلاثين ، إلى نشاط جديد يخدم به الامة ويرفع مستوى اللغة العربية ، وهو الكتابة في (الزوراء) جريدة الحكومة الرسمية .

دعاه إلى ذلك والى الولاية سري باشا الكريدي سنة ١٣٠٧ هـ ، وكان من العلماء المعنيين بالتأليف ومن أشد المعجبين بمواهب الالوسي . والاشتغال بالصحافة ، وهي حديثة النشأة بالعراق يومئذ ، لم يكن مما يفكر فيه الالوسي ويعد نفسه له ، إنما كل همه كان مصروفا في الخطة التي اختطها في حياته العامة وهي : الاشتغال بالتأليف ، وإيجاد نابتة من العراقيين تحيي اللغة العربية والعلوم الإسلامية وتجدد مارث من عقيدة الامة وتقيم ما اعوج من أفكارها وسلوكها . وقد ملأ هذان المذهبان شغاف قلبه ، ولم يتركا لشيء آخر مكانا فيه ، حتى لكأنه لم يخلق لغيرهما في هذه الحياة . لكنه لم يجد حرجا فيما دعاه سري باشا إليه من ولاية تحرير القسم العربي في الزوراء ، إذ كان ذلك فرعا من شجرة الخدمة التي ألزم نفسه القيام بها ، فقبل دعوته .

والزوراء هي أول جريدة صدرت ببغداد .

أسسها مدحت باشا أيام ولايته في سنة ١٢٨٦ هـ ، وظهرت أول ماظهرت في شهر ربيع الاول منها ، ودامت إلى سنة ١٣٣٥ هـ آخر سني الحكم العثماني . وكانت تصدر باللغتين العربية والتركية ، ثم طويت اللغة العربية منها بعد صدور الدستور العثماني ، واقتصر على كتابتها باللغة التركية .

وكانت أيام ولاية السيد الالوسي تحرير القسم العربي من هذه الجريدة خير أيامها على الإطلاق . ارتقى فيها مستوى الكتابة في كل ما تناولته من

موضوعات، وفصحت لغتها، وحصفت معانيها، وتنوعت أغراضها، فمقالات تاريخية وأخرى عمرانية أو أدبية، وإلى جانب ذلك مطارحات وأسئلة فى العلم واللغة كان السيد الالوسى يحرك بها ذلك الجو الساكن ويحفز العلماء والادباء للبحث والإنتاج والنشر. ثابر على ذلك فى تحرير هذه الجريدة مدة ولاية سرى باشا، وكانت سنة ونصف سنة وواحداً وعشرين يوما، وكان يزامله فى التحرير صديقه وصفيه عبد الحميد بك الشاوى وهو من أبرع أدباء العرب فى الكتابة العربية والتركية فى عصره.

ولما عزل سرى باشا من ولاية بغداد، ترك السيد الالوسى الكتابة فى الزوراء، ولم يَعدْ يفكر فى الصحافة وانصرف انصرافا تاما إلى ما اختاره لنفسه من الاشتغال بالتأليف والتدريس والنشر، وربما أطرف المجلات العربية المشهورة ببحوثه التاريخية واللغوية والادبية إذا استكتبته وطلبت منه العون.

وأشهر المجلات التى أمدّها ببحوثه هى. سبيل الرشاد. والمقتبس، والمشرق، ومجلة المجمع العلمى العربى، والمنار، وغيرها.

(٤)

« دور » المصلح :

لما بلغ الألوسى هذا الطور من حياته ، واتسعت آفاقه الذهنية والعلمية ، رأيناه يبدأ حالا جديدة من أحوال التفكير والاجتهاد ، ويعيد النظر فيما تعاوره فى أثناء الشباب من أخلاط العقائد والنزعات المذهبية المختلفة ، ويدرس أصولها ومناشئها وما تنصره أو تخذله من الأصول الإسلامية المتمثلة فى ظواهر القرآن والسنة ، ويمضى فى هذا ونحوه مما تجره إليه تأملاته ودراساته المتنوعة متعمقاً متقصياً حتى يوفى على الغاية مما يريد .

وقد استقر اجتهاده — فى جملة ما كان يمارسه من بحث ونظر واجتهاد — على الوقوف بوجه بعض هذه العقائد والنزعات وإدحاضها بالحجج والبراهين فكتب فى نقضها كتبا كال سبيله فيها كلها الدفاع — لا الهجوم — ، وهو حق طبيعى مشروع يبرىء صاحبه من وصمة طلب الشر وإرادة الفتنة ، وبعض هذ الكتب قد طبع فى الهند إذ الألوسى حى يرزق ، ثم طبع ثانية فى مصر بعد وفاته بعهد طويل ، وأكثرها بقى مخطوطا ، مبثوثة نسخه فى خزائن الكتب الخاصة .

ووقف من التصوف موقفا وسطا فى بادىء الأمر ، لا متشيعا له ولا خارجا عليه ، كما تمثل ذلك فى كتابه « الأسرار الآلهية شرح القصيدة الرفاعية » الذى كتبه سنة ١٣٠٥ هـ . فقبل منه ما وافق الكتاب والسنة ، لكنه قال بالعلم الباطن « الذى لم يسطر فى الطروس ، ولم يحفظ فى الدروس ، وإنما هو إلهام وتلقين من الله تعالى بغير واسطة ! » ، وجرى مجرى بعض الفقهاء فى الاعتذار عما وقع فى كتب جمع من متأخرى الصوفية ، كابن عربى واتباعه من اعتقاد الحلول والاتحاد ، بأن ما يقولونه من ذلك غير مراد به

ظاهره الذى هو كفر محض ، وأنه اصطلاح جروا عليه ستراً لاعتقادهم من دعاة الباطل على حد تعبير هؤلاء الفقهاء ، وفى الوقت نفسه أبى أن يلحق متشيخو عصره بهؤلاء ، وحمل عليهم حملة شعواء ، وقال فيهم ما قال مالك فى الخمر وزيادة(١) .

وهذا التجهم الذى أظهره الألوسى لشيوخ الطرق الصوفية فى عصره ، لما كانوا يظهرون من ورع ويبطنون من طمع ، كان بداية ثورته على فساد الحياة الدينية التى كان يمثلها هؤلاء الشيوخ ، والباب الذى أدى به بعد قليل من الزمن إلى رفض التصوف : مذاهبه وطرقه جملة ، والوقوف إلى جانب رجال الإصلاح الإسلامى (كجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وعلماء نجد ومحدثى الهند السلفيين كالإمام السيد حسن صديق خان ملك بهوبال) لمؤازرة الحركة السلفية السنية الإصلاحية الداعية إلى ظواهر الكتاب والسنة ، وفتح باب الاجتهاد ، وتطهير عقائد الناس من البدع والخرافات التى بثها العابثون فى الدين . . . فى شجاعة وقوة ومضاء ، غير آبه بالسلطان ومستشاره الدينى وحزبه الصوفى الغالب على أمر البلاد : مع ما يرى من حرب الدولة العثمانية لهذه الدعوة الإصلاحية وما يعلم من تعريض نفسه بذلك لغضب السلطان وبطشه .

بدأ الألوسى بهذا الكتاب علاقته بأبى الهدى الصيادى الرفاعى مستشار السلطان الدينى صاحب النفوذ الكبير فى الامبراطورية العثمانية، وهو معه على وفاق . أو بدأ أبو الهدى علاقته بالألوسى على الأصح . ذلك بأنه نظم فى مدح السيد أحمد الرفاعى الفقيه الشافعى الصوفى المشهور المتوفى فى ٢٢ جمادى الأولى ٥٧٨ هـ منظومة جارى بها منظومة لعبد الباقى العمرى الموصلى فى مدح الشيخ عبد القادر الجيلى ، وكان أبو الثناء الألوسى قد شرح هذه المنظومة شرحا أدبيا بارعا سماه (الطراز المذهب شرح قصيدة الباز الأشهب) ، فأحب أبو الهدى أن تحظى منظومته بمثل هذا الشرح فى الطرافة من حفيده

(١) انظر الأسرار الإلهيه ٤١ ، ٦١ .

(الذى ذاع اسمه وعلت شهرته يومئذ بفوز كتابه بلوغ الأرب فى مضمار المباراة التاريخية الذى عقده أسكار الثانى ملك السويد والنرويج كما بسطنا ذلك آنفا) ، واجتهد بعض أعوانه فى العراق فى تحبيب ذلك إلى الألوسى الحفيد ، وما زال به حتى استجاب له ، وشرح هذه المنظومة شرحا نفيسا امتزجت فيه اللغة بالادب ، كما التقت فيه نزعتا التصوف والسلفية ، واقترنت نقوله عن ابن حجر المكّى وأمثاله بنقوله عن إمامى الإصلاح الإسلامى تقى الدين بن تيمية وشمس الدين بن القيم .. لكنه مع هذا نال رضا أبى الهدى وإعجابه ، لأنه سيكون من وسائل تأييد مركزه عند السلطان عبد الحميد وإيهامه عظم مكانته فى العالم الإسلامى وإقبال مثل هذا النابغة الذى لا يجهل السلطان شأنه على إكبار أدبه .

ولما أراد أبو الهدى طبع الكتاب ، عمد إلى مواضع منه فأضاف إليه أساطير خرافية سخيفة من أساطير المشعبذين العابثين بعقول الجماهير الأمية ، ونعت المؤلف فى تسميته بصدر الكتاب بـ « الرفاعى الخرقة » ، ثم كتب إليه يشكره على هذا الشرح ، ويبشره بطبعه ، ويذكر أنه جعل جائزته له « الطريقة الرفاعية » ، وأرسل إليه طائفة من كتب هذه النحلة الصوفية ، ودعاه لرفع لوائها فى العراق .

ودارت بين الألوسى وأبى الهدى مراسلات كثيرة فى هـــذا انتهت بالقطيعة ، لإصحار الالوسى عن نزعته السلفية الإصلاحية الحرة وبعده عن هذه الخزعبلات .

ومن طريف ما كتب أبو الهدى فى أول رسائله إلى السيد الالوسى :

« .. أبدى بعد الدعاء الصالح لكم أنى أخذت كتابكم مع شرح القصيدة الرفاعية ، وصرت ممنونا داعيا لجنابكم بالادعية الخيرية . أما الكتاب فهو كتاب شريف ، وسفر ظريف ، دل على فضلكم دلالة الشعاع على الشمس ،

والجوهر الفرد على الجنس . . . وجعلت لكم الجائزة إجازتى بالطريقة المرضية الرفاعية ، وأجزم — إن شاء الله تعالى — أنها تكون مفتاح السعادتين الدنيوية والأخروية . وقد صحح القوم الإجازة بالواسطة ، وقالوا إن مجرد الإذن عقدة الرابطة . وأرسلت لكم كتبا بهذه الطريقة الشريفة ، لتقفوا على أحكامها المنيفة ، والغاية العظمى أن يهدى الله بكم وعلى يديكم ، ويعود ثواب هذا الهدى على وعليكم .

« . . وطالما كنت أود أن يفتح الله على أحد من عشيرتكم — بنى عمنا آل الحسين فى العراق — ليجددوا ما أخلقه الزمان بعد انقضاء الطبقة الأحمدية من شريف الأخلاق . « مرتجل » :

ظننت نعمان يدنو من محصبنا ... لكن نأى أن يصح الظن نعمان (١)

فأتى بك الله من بطن الغيب ، بريئاً — كقومك — من دنس العيب . فشكرى لله أن رفع لواء الطريقة الرفاعية بحسينى كان عن الحقيقة فى وسن الوطن منحجباً وهو عالم ، وقد يعذر العظيم إذا فاته بأبخرة الأمكنة والأزمنة رؤيا المنح العظائم .

ولست — وربك — ممن يفتخر بفلان وعلان ، ولكنى ممن يحرص على خدمة الحق فى هذه الأزمان ، وأود أن تكون أعوانى من ذوى عصبيتى الفاطمية الذين همهم ربهم دون عرض من أعراض الأكوان .

فانتصب ، أى حبيبى ، على قـــدم الصدق بصحيح العزم والعزيمة لهذه الخدمة ، واعلم أنها — إن شاء الله تعالى — من أتم موائد الفتح والنعمة ، وحسبك الله ومن اتبعك ، وكن مع الله تر الله معك ، وأرجو من كرم

---

(١) يعرض أبو الهدى فى هذا البيت بالعلامة أبى البركات نعمان خير الدين الألوسى ،لنصره فى كتابه « جلاء العينين » مذهب السلف وانتصابه لقمع البدع والأهواء .

الله تعالى أن يمنحك الله بأقرب الأوقات رتبة الإقبال ، وأن يمن عليك وإيانا والمسلمين بأشرف الأحوال . »

وكتب أبو الهدى إلى الألوسى فى رسالة ثانية يخبره بإنجاز طبع هذا الكتاب « كتاب الأسرار الالهية ، ويقول له فى بعضها :

« وفى أيام الأعياد والمواسم قدموا « التلغرفات » التبريكية من الحضرة العلوية الرفاعية إلى العتبة الملوكية ، نظراً لما منحكم إياه — نصره الله — من عواطفه السلطانية ، واختصكم بهـــذه المزية ، فانها مبدأ فيوضاتكم ، وأول ترقياتكم . »

لكن السيد الألوسى لم تغره « موائد الفتح والنعمة ورتبة الإقبال » ، ولا « العواطف السلطانية وفيوضاتها وترقياتها » التى يلوح له بها أبو الهدى فى رسائله ، ليحمله على أن يكون من دعاته وأعوانه ، وينضم إلى طريقته التى ظاهرها التصوف والدروشه وباطنها تأييد سياسة السلطان عبد الحميد وتكثير أعوانه وأنصاره . .

فكتب إلى أبى الهدى شاكراً هذه الألطاف التى يمنيه بها ، وهذه الجائزة التى جعلها له على كتابه وهى الإجازة بالطريقة الرفاعية ، وتلطف بالاعتذار له بأن اشتغاله بالعلم يعوقه عن امتثال رغبته فى الدخول فى «طريقته» والاشتغال برسومها ، ولم يفته أن يستغل هذه الأسفار التى أهداها اليه ليشعره بحقيقة منازعه ، وليحمل على أهل البدع والأهواء من بقايا الباطنيين ومن المتشيخين القائلين بوحدة الوجود ، فيقول :

« وقد حلت (هذه الأسفار) من أهل البدع والأهواء ، الحائدين عن طريق السواء ، محل الأسنة من الرقاب ، والصوارم فى نحور أهل الشقاء والعذاب ، ولا سيما « كتاب القلائد » الذى ألجم القائلين بالوحدة بلجام الإسكات ، لماحواه من النصوص القواطع والآيات البينات . وقد كنا فى جهد

جهيد من هذا الخصوص ، فإن بعض المتشيخين الزائغين قد أعلن بهذه الدعوى ولم يبال بقواطع النصوص ، وزاغ بذلك عن الحق المبين ، كثير من الجهلة القاصرين . »

أما أبو الهدى فقد تجاهل ذلك كله ، ولم يقطع أمله فى انضمام السيد الألوسى إليه . كأن شرحه لمنظومته أطمعه فيه وخيل إليه سهولة انقياده ، فتابع الكتابة إليه ، وافتن فى ترغيبه فى « طريقته » ، ولم ينس فى كل مرة التلويح بعوائد الفتح ورتب الإقبال والفيوضات والترقيات ، وقد أشار على الألوسى فى بعض رسائله بمصافاة أعوانه فى بغداد ، وسمى أناساً بأسمائهم ، وطلب إليه أن يكون لهم كالوالد للصغير والأخ للكبير ، ودعاه فى أُخرَ إلى ترغيب الناس فى سلوك الطريقة الرفاعية ، وإلى التأليف فيها وأنه يطبع له كتبه حباً لصاحب الطريقة (يعنى السيد أحمد الرفاعى) ونشراً لاسم المؤلف .

وكلما أعاد أبو الهدى دعوته ، أعاد الألوسى اعتذاره . وقد كتب الألوسى اعتذاره الاول متلطفاً ، لكنه اشتد فى اعتذاره الثانى وجانب الرفق مع أبى الهدى وحمل على أتباعه المتشيخين بالعراق حملة عنيفة تمثل لنا طبيعته الحرة وتصور ما استقر عليه رأيه فى التصوف والصوفية فى هذا الطور :

يقول الالوسى فى هذا الاعتذار :

« أما بعد ، فقد تشرفت بكتابكم الذى قرع الاسماع بزواجر وعظه ، وأزال صدأ القلوب برقائق لفظه . وقد شكرت فضلكم على ماذكرتموه من النصائح التى تأخذ بيد من يسلك على مقتضاها إلى أعدل المناهج ، وحلّت لدىّ محلّ العذب النمير من العطشان ، وكانت عندى بمثابة الرّوح والريحان . غير أنى كما عرضت لها تيك الحضرة فى السابق ، لاوقت لى لسلوك طريقة من الطرائق وأين أنا من تربية المريدين ، وإرشاد السالكين . وقد استغرقت الليل والنهار فى الإفادة والاستفادة فى هذه الديار ؟ ولاسيما أن جميع من ينتمى إلى طريقتكم العلية فى الخطة العراقية جهلة أوباش عوام . لا يميزون بين اليمين من الشمال

ولا الحلال من الحرام : ديدنهم سؤال الناس ، فيما يحتاجون إليه من الاكل واللباس . ودينهم الذى هم عليه فى الباطن والظاهر . الرقص والغناء ودق الطبول والمزاهر . ولا شك أن مثل هذا لم يكن على عهد الشيخ أحمد ولا على عهد غيره من الأكابر . إنما أحدث ذلك جاهل بالشريعة الغراء . مناقض لمقاصدها العلية بلا مراء . والويل كل الويل لمن أنكر عليهم جهلهم . وأبطل فعلهم وقولهم . فإنهم يرمونه بكل نكير . ويوجهون نحوه أسنة ألسنة التزوير .

فالعفو ياسيدى — عن سلوك طريقتك . والاغتراف من بحر حقيقتك لأنى — ولله تعالى الحمد — ممن اشتهر حاله بالذب عن السنن . والرد على كل زائغ من أهل البدع والأهواء والفتن . فالسكوت والإعراض عن هؤلاء الجماعة . لا يخلو عن بشاعة . والاعتراض عليهم أخشى منه الشناعة . وقد كبر عليهم ما نذكره من الهدى النبوى والشرع المحمدى ، ولا بد أنه سيأتيك منهم فى هذا الباب ، ما يكدر خواطر أولى الالباب . »

ويتحدث الالوسى بعد هذا عن السيد أحمد الرفاعى ، ويفرق بين من يثنى عليه لاتباعه أحكام الشريعة ومن ينتحلون الطريقة المعزوة إليه ويرتكبون باسمها ضروب البدع والمنكرات ، ويذكر مقامه فى نفسه وما يتعين من احترامه ، ويشير إلى معتقد أسرته فيه وإلى وسيلتهم إلى الله من اتباع سنة الرسول والذب عنها والاقتداء بالسلف الصالح فى الاقوال والافعال .

ووقف الامر بين الألوسى وأبى الهدى عند هذا الحد من الخلاف .

ثم ما لبث الألوسى أن أصحر عن انحيازه فى جراءة وقوة إلى الحركة السنية السلفية ، مع مقاومة الدولة العثمانية الصوفية لهذه الحركة الإصلاحية بكل قواها الرجعية .

واستعلن وقوفه إلى جانبها بكتابه « فتح المنان تتمة منهاج التأسيس ردّ صلح الإخوان » الذى فرغ من تأليفه فى غرة ذى الحجة سنة ١٣٠٦ هـ . وطبعه

له الامير الشيخ قاسم بن محمد بن ثانى حاكم قطر ، من كبار أنصار الإصلاح الإسلامى . بإحدى مطابع « بَمْـبَىْ » بالهند فى سنة ١٣٠٩ هـ .

فلما وقع الكتاب إلى أعوان أبى الهدى بالعراق . ثارت ثائرتهم على الألوسى وشنعوا عليه ما استطاعوا التشنيع . ودبروا أمراً للإيقاع به . واستعدوا عليه أبا الهدى لعله يحمل السلطان على التنكيل به .

أما أبو الهدى فقد كتب إلى السيد الألوسى — بما بلغه — معاتباً ، مازجا فى كلامه بين الوعد والوعيد ، وكان أبو الهدى صاحب النفوذ الأعلى فى القصر العثمانى وإليه التقريب والتبعيد ، وكان يظن أنه سيرعب الألوسى وعيده أو يستخفه وعده فينقاد إليه ويسلس طاعته له ويتابعه على نحلته وفساده وعبثه بعقول الناس . لكن الألوسى كان أكبر فى نفسه مما تصوره فيه من الحالتين اللتين قد تؤثر واحدة منهما فيه ، فتثنيه عن سبيله : سبيل الإصلاح والتجديد ، فأجابه بما يغضبه ولا يرضيه ، وعنف فى إجابته والرد عليه ، ولم يبال ما يجره كيد أبى الهدى له عند السلطان عبد الحميد ، ومن كلامه له :

« ثم إنى أعرض لخدمته — متعنا الله بحياته — أنه لم ينج أحد من الكلام عليه ، وإلقاء التهمة بين يديه ، ولا سيما فى هذا الزمان ، المتكوّن أهله من محض الحسد والعدوان : طالما رموا برّياً ، وعادوا ولياً ، وأبطلوا حقاً ، وكذبوا صدقا . وهذه شنشنة قديمة ، لكل من ولدته لئيمة ، وعادة مستديمة لذوى الأخلاق الذميمة ، لا سيما أن الجهلاء ، أعدى الناس للعلماء .

« ونحن — ولله تعالى الحمد — لم نزل متمسكين بهدى السادة السلف ، سالكين أثرهم فيما تلقوه من آثار الشريعة الغراء ، وفيما حازوا به غاية الشرف ، فلا ينبغى لمثلك الإصغاء لقول حسود جهول . لا يدرى ما يهذى به ولا يشعر بما يقول .

«غاية الأمر أنى أكره المغالاة فى عباد الله ، ولا تسمح نفسى أن أصفهم بصفات الألوهية ولو بلغ الأمر منتهاه .

«وأما احتقار أولياء الرحمان ، الفائزين بمقامات العرفان ، أو أحد المسلمين ، السالكين سبيل الصالحين ، فذلك عندى من أعظم المنكر ، والذنب الذى لا يعفى عنه ولا يغفر .

لئن كنت قد بلّغت عنى جناية   لمُبلِغُك الواشى أغش وأكذب

«نعم ، إنى لا أزال أحط على أولياء الشيطان ، وأقبح مردة إبليس ذى الخسران ، والأمر لله تعالى وهو المستعان .

«فما بلغك ، صرير باب ، وطنين ذباب . وإنى بحمد الله — لست ممن يحابى أمثالك ، أو يرهب أقوالك وأفعالك ، لعلمى أن الله تعالى هو الفاعل المختار ، وأن ماوعدنى به أناله فلا مانع لما أعطاه ولا نافع سواه ولا ضار .

«فالمأمول من تلك الحضرة العلية ، والأخلاق المحمودية المرضية ، ألا يبرق ولا يرعد ، ولا يقوم ولا يقعد ، فإن محبتى له لا لأمل ، ولا لطمع فى منصب ولا عمل . وأرجو منه ألا يفتح معى هذا الباب ، ولا يخاطبنى بخطاب عتاب ، فإنى — ولله تعالى الحمد — ممن عرف دينه ، واستكمل إيمانه ويقينه ، وذلك ببركة خدمة العلم وأهله ، والذب عن حمى حُرَمه فى حَزْنه وسهله ، فلم تبق لى حاجة «بقال وقيل» ، وتلقى وساوس الأفكار والأباطيل .

«واللائق بحزم السيد — أصلح الله تعالى حاله ، وحمد فى الأمور عاقبته ومآله — عدم الإصغاء لأمثال هؤلاء . ولا يغرنه منهم تكوير العمائم وشبه صور الإنسان ، فليس الأمر كما يعلم وليس الخبر كالعيان .

فما كل مخضوب البنان بُثَيْنَة   ولا كل مصقول الحديد يمانى» .

° ° °

ولست أدرى علام استقرت الحال بين السيد الألوسى وأبى الهدى بعد هذا . ولكنى أعلم أن الألوسى مضى غير آبه لأحد كائنا من كان فى الخطة الإصلاحية التى رسمها لنفسه ، لايلويه عن المضى فيها وعد أو وعيد كما صورت هذه الرسالة ذلك كله ، إذ كان قد آمن بها إيمانا عميقا صادقا يؤازره بصر نافذ ، وعلم واسع بأصول الإسلام وفروعه ، وإحاطة تامة بتاريخه وبما تحكم من النحل والبدع والأهواء الدخيلة فى اتجاهاته عبر عصـــوره ، وإخلاص لا يضاهيه إخلاص لهذه الحياة الإسلامية التى أصابها الوهن والتصدع بفعل فساد العقيدة وتفرقها ، بما هاجمها من هذه الأشياء الدخيلة .. حتى استقر عنده — بما لا يقبل خلافا ولا جدلا — أن لا مفر من إنقاذ هذه الحياة الإسلامية بتطهيرها من كل أولئك ، ورسم صورة صادقة للإسلام الصحيح ومفاهيمه العربية الأصيلة تمثل لأذهان المسلمين على النحو الذى أخذه المسلمون الأوائل عن رسول الله ، فارتقوا بذلك ارتقاء معنويا وماديا كانوا به سادة أهل الأرض لعدة عصور ، إلى أن نجمت متغلبة الشعوب برواسبها الوثنية وأصولها القديمة الفاسدة التى غلبتها ودستها فى عقائد المسلمين .

والمسألة كما تبدو فى صورتها العامة الموجزة هذه ، كانت واضحة أشد الوضوح فى نفس الألوسى وعقله وقلبه ، وكان لها بعد آثار عميقة فى أفكاره وآرائه .. لكن لم يكن هينا لمثل أبى الهـــدى الطالب للدنيا بالدين وحزبه من أعوان السلطان المستبد ومن إليهم من الشيوخ المقلدين أن تنكشف الغواية عن بصائرهم فيعقلوها ، ويدركوا إذا عقلوها هذا الخطر الذى حاق بالإسلام وأهله من هذه العقائد الدخيلة الفاسدة المضللة ، وأنى لهم أن يعقلوا ذلك ، وهم الذين يتبنون هذه العقائد ويظنون أنهم مؤيدون بها هذا الدين ؟

لذلك اعتزل الألوسى هؤلاء جميعا ، وانفرد بنفسه وبدعوته ، ومضى يؤلف قلوب الناس ويجمعها على هذه الدعوة ، ومضى رؤساء هؤلاء يهيجون

الناس عليه ويبسطون ألسنتهم فيه ويكيدون له ويدسون عليه عند السلطان ، وقد غاظتهم شجاعته فى إعلان أفكاره واستحسان المستنيرين من الشبان والكهول لهذه الأفكار ، وحسدوه أن علت منزلته درجة بعد درجة وأن ذاع صيته وانبسط نفوذه إلى ماوراء العراق فى جزيرة العرب عند علمائها وأمرائها من آل الرشيد وآل سعود وآل ثانى وغيرهم ، وإلى الشام ومصر والهند وأقاليم تركستان الروسية وقازان وغيرها ، فاشتدوا فى مكرهم له ، وتطاول العهد عندهم بهذا المكر ، وطال صبره على أذاهم ، وكلما دبروا له مكيدة أخفقوا فى تنفيذها .

(٥)

نفيه إلى الاناطول :

وفى سنة ١٣٢٢ هـ جاء بغداد والٍ ألبانى يقال له « عبد الوهاب باشا » وجد هؤلاء الغرماء — فى غير مغرم — مكان الكيد ذاسعة عنده ، إذ كان رجل سوء وكان شعوبياً خرافياً يشنأ المفكرين ويحقد على المصلحين ودعاة التجديد ، فطفقوا يدسون على السيد الألوسى عنده ، ويمثلونه له على الصورة التى تمليها البغضاء والضغينة ، حتى أخافوه منه وبغضوه إليه وأثاروه إلى رفع مذكرة إلى السلطان عبد الحميد يصف فيها نفوذه الشعبى وتأثيره فى الناس وترويجه للدعوة العربية والانفصال عن الدولة ، وما إلى هـــذا من مخاوف يحذرها السلطان ولم تكن تخطر من السيد الألوسى ببال ، ويقترح إبعاده من بغداد والتنكيل به وبأعوانه وأنصاره قبل أن تستفحل دعوته وتحدث للدولة متاعب هى فى غنى عنها .

وكان طريق مثل هذه المذكرة — فى العادة — إلى أبى الهدى مستشار السلطان فى القضايا الإسلامية . ولا ريب فى أن إثارة غرماء الألوسى ببغداد هذا الوالى لكتابة هذه المذكرة هى من وحيه وتدبيره بعد أن أعيته حيله فى استمالته إليه على ما علمنا منذ قريب ، فلم يكن من المنتظر منه ، والحالة هذه إلا أن يزين للسلطان عبد الحميد إنفاذ هـــذا الاقتراح على ذلاذله . فنجحت المكيدة ، وأصدر السلطان أمره بنفى السيد الألوسى وكبار أنصاره وتلاميذه إلى الأناطول فوراً ، فأخذ من داره مخفوراً ليلة ٢٢ المحرم ١٣٢٣ هـ ، وأخذ معه ابن عمه السيد ثابت بن أبى البركات نعمان خير الدين الألوسى والتاجر الثرى الحاج حمد العسافى النجدى من كبار الأتقياء الصالحين ، وأبعدوا جميعا إلى الاناطول . وطلبت السلطة المحلية آخرين من كبار تلاميذ السيد الألوسى

كالأستاذ عبد الرزاق الاعظمى ، الذى علم بالامر فاختفى ثم فر إلى بريدة إلى حاكمها الامير ابن الرشيد (وكان من أنصار هذا الإصلاح الإسلامى إلا أنه كان له جاه عند السلطان عبد الحميد إذ كانت ضلعه مع الدولة العثمانية على آل سعود) ليحتمى به ، وليوسطه لدى السلطان ليلغى أمر النفى ويعيد السيد الالوسى إلى بغداد .

وظن غرماء الالوسى أنهم حققوا لانفسهم انتصاراً كبيراً عليه ، وتناهبوا وظائفه التدريسية ، ثم ما لبثوا أن خاب فألهم وارتدوا خاسئين .

ذلك أنه لما بلغ ركب الألوسى مدينة الموصل ، وتسامع الناس به ، خرجت المدينة لاستقباله وأحسنت لقاءه ، وبالغ أعيانها وجميع طبقات الناس فيها فى الحفاوة به ، واستفظعوا أن يعامل مثله فى علو مقامه وسمو ذاته هذه المعاملة المنكرة التى تزرى بالدولة ، وحالوا دون الخروج به من الموصل إلى منفاه ، ثم عمدوا إلى مراسلة السلطان عبد الحميد فى ذلك ، واضطرت السلطة المحلية أن تجارى المدينة الغضبى ريثما تسفر هذه المراسلة عن نتيجتها الإيجابية أو السلبية .

ولما تسامع هؤلاء الغرماء ببغداد بنبأ هذا الموقف الذى وقفته مدينة الموصل برمتها ، أسقط فى أيدهم ، ثم بادروا فأجمعوا أمرهم على أن يكيدوا للسيد الألوسى كيداً جديداً يحققون به خلاصهم منه . . فوقعوا على تدبير هزيل ، وهو أن يبعثوا إليه بالبريد بمجموعة من كتب شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية ، وقد كانت الدولة العثمانى تحظر نشرها فى مملكتها نزولا عند رغبة أشباه العلماء من الفقهاء المقلدين ورجال التصوف ، ليحبطوا بذلك مساعى علماء الموصل وأعيانها عند السلطان ، ويعجلوا بإبعاده إلى منفاه فى الأناطول ، وكتبوا بما دبروا من ذلك إلى أشكالهم فى الموصل طالبين إليهم السعى فى حجز هذه الكتب عند وصولها إلى دائرة البريد وتنبيه والى الولاية إليها . ونجحت مقدمة التدبير ، وعقد والى الولاية مجلسا حشر

فيه نفرا من الشيوخ المتاجرين بالدين ، فأفتوا بإتلاف هذه الكتب وإدانة السيد الألوسى ، وطلبوا التعجيل بنفيه . . لكن الكتب لم تتلف ، بل بعث بها إلى استنبول ، وكان الله فى عون الألوسى ، فأخفقت المؤامرتان ، ونجحت مساعى علماء الموصل الاحرار وأعيانها الأبرار لدى السلطان ومساعى العلامة على علاء الدين الالوسى الذى كان فى استنبول كذلك ، ووثق بما صححوا من رأيه فيه ، فألغى أمر نفيه ، وأذن بعودته إلى بغـــداد وإعادة وظائفه التدريسية إليه ، وذلك بعد أن لبث فى الموصل شهرين محفوفا بعناية الاهلين من مختلف الطبقات ، ولا سيما العلماء والاعيان والوجوه والتجار الكبار ، وكانوا يعدون مقامه بين ظهرانيهم من مواسم الدنيا فى حياة مدينتهم .

ولما خرج من الموصل إلى بغداد ، مشت المدينة فى توديعه ، وكان يوم خروجه يوما مشهوداً . ودخل بغداد شامخ الرأس ، وقد استقبلته الجماهير البغدادية وفى طليعتها أصدقاؤه وتلاميذه ومريدوه من مراحل بعيدة استقبالا حافلا منقطع المثال ، وانهالت عليه من كل مكان القصائد والرسائل فى تهنئته بعودته منتصراً على غرمائه .

كان هذا الحادث فى حياة السيد الألوسى عاملا جديدا فى رسوخ مكانته ، وازديادها رفعة فى القلوب . . وسع دائرة شهرته ، وبسط سلطانه ، وزاد حب الناس له .

كذلك كان انتصاره على غرمائه بهذا التأييد الموصلى العام وانصياع السلطان له وبما لتى من مظاهر تعظيمه من البغداديين وغيرهم . . حافزا قويا لرجوعه إلى سيرته العلمية العملية ، واستمراره على خطته من محاربة الفساد وتصحيح العقائد وتطبيق مناهج الإصلاح والتجديد .

لكن شيئا من هذا وذاك كله ، لم يخدعه عما أفاده من خبرة جديدة بالحياة ، بل علمه حين يندفع فى أمر خطير كيف يحتاط لنفسه ويجعلها فى مأمن من عوادى هذا الاستبداد الطائش الذى تميز به عصره .

يدل على هذا نشره سنة ١٣٢٥ ﻫ بالقاهرة (غاية الأمانى) أعظم كتبه فى تحرير مسائل التوحيد الخالص، وتصحيح العقائد والآراء الإسلامية، وتحبيذ الاجتهاد، وما إلى ذلك من القضايا الخطيرة المؤثرة فى الحياة العقلية الدينية عند المسلمين، وهو غفل من اسمه الصريح، ومعزو إلى (أبى المعالى الحسينى السلامى)، وهذه الثلاثة هى كنيته ونسبه ونسبته حقا وصدقا.. لكنها — مع ذلك — فيها شيء من التعمية من غير شك، لجأ إليها ليحتاط لنفسه ويتفادى إلقاءها فى التهلكة وينجو من بطش الاستبداد الغالب الذى مازالت وطأته يومئذ شديدة على حرية الفكر والمفكرين، ويهون مثل هذه التعمية اللطيفة التى يقضى بها الاحتياط المفروض شرعا وعقلا بجانب الشعور الصادق الأمين الذى يحمل أرباب اليقين على القيام بالدعوة المستدامة إلى الحق والاستمرار على إذاعة مناهج الصدق مما يفتح البصائر على أنوار اليقين فى سبيل الهداية إلى الله.

عزلته وإقحامه فى ميدان السياسة الدولية :

كان هذا كله وما إليه من الدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية ، هو هوى السيد الألوسى الذى لم يفتر عن التناغى به والتأليف فيه والتمكين له فى نفوس الشداة الذى يخلفونه على حراسة ذلك ، وتكون حياتهم امتداداً له ، وهو شاغله الذى صرفه عن عمالات الدولة وإبائه إياها إذا دعى إليها .

لكن مكانته الاجتماعية والعلمية كانت تدعو ولاة الولاية إلى تعظيمه بالتقرب منه ، ومشاورته فى الشئون العامة ، والاستئناس بآرائه فيما ينبغى ومالا ينبغى من سياسة الناس وإدارة مصالح العباد . . فلا يجد محيصاً من استقبالهم ومحاورتهم فيما يتحدثون به إليه من ذلك ، وإذا أشار عليهم بالرأى الصادق أوصاهم بالرفق وتجنب مزالق الشدة والعنف ، وإذا عرضوا عليه ولاية عمل من أعمال الدولة أباه .

لكن استطاع مرة أحد الولاة ، وهو جمال بك (المشهور بجمال باشا السفاح بعد هذا العهد) أن يحمله على قبول منصب عضو مجلس الإدارة فى ولاية بغداد ، انتخبه البغداديون له فى سنة ١٣٣٠ هـ بدلا من غريم للسيد الألوسى — من أعيان بغداد — كانت له ضلع فى حمل الوالى عبد الوهاب باشا الألبانى على نفيه فى سنة ١٣٢٣ هـ إلى الأناطول ، وكان هذا المنصب لا يكون فى ذلك العهد إلا للأعيان حقاً ، فقبله ، إذ كانت أعماله تخدم المصالح العامة ، وصاحب أمره حر فى تصرفه ولا ولاية لأحد عليه .

ثم أقحم فى ميدان السياسة الدولية فى الحرب العامة الأولى .

وذلك حين تتابعت هذه الحرب على الدولة العثمانية سراعا ، بعد أن دفعها إلى أتونها دفعا ، واشتعلت نيرانها فى أطراف المملكة ، وامتدت

إلى العراق ، إذ أغار الإنكليز على الفاو فالبصرة ، فاحتلوهما من غـــير مقاومة تذكر . .

هنالك اضطربت الدولة هلعا وخوفا من سوء المصير ، وبادرت إلى تلافى الحال قبل وقوع العراق كله فى قبضة هؤلاء الإنكليز ، فرأت أن تستجيش باسم الآصرة الإسلامية أعداء الأمس البعيد والأمس القريب المتصل بيومها الذى هى فيه ، أعنى أهل أواسط الجزيرة العربية الذى ناهضتهم هذه الدولة العثمانية منذ نجمت دولتهم الأولى فى القرن الثانى عشر الهجرى إلى أن أزالتها ، ثم عطفت على دولتهم الثانية فنصبت لها العداء وحاربتها وهى فى مهدها بالسنان واللسان ، ولم تترك لهؤلاء النجديين اديما صحيحا من دينهم ودنياهم إلا مزقته وفزعت إلى السيد الألوسى ، الذى حاربته بالأمس من أجل نصرة الحركة السنية السلفية المنبعثة من بلاد العرب ، لتستعين بعاطفته الإسلامية ، ونفوذه الروحى ، فى حمـــل الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمان الفيصل آل سعود (مؤسس الدولة السعودية الثانية فى الرياض) على نجدة الدولة ، والوقوف الى جانبها فى هذه الحرب ، وأن يتولى من جهته ضرب الإنـكليز من مؤخرتهم على حين تنهد لهم جيوشها من المقدمة .

فندبته للسفر إليه على رأس وفد فيه ابن عمه العلامة على علاء الدين الألوسى والحاج بكر بك من أمراء الجند والحاج نعمان الأعظمى من تلاميذه ، ليبذل جهده فى إقناعه بهذه الخطة . .

ولما شارف الألوسى الغاية التى دفعت إليها الدولة دفعا ، آده أن تـكون المملـكة بين نارين من حكامها الأغرار ومن أعدائها المغيرين . فقبل هذا التكليف فوراً ، ولم يتردد فيه قياما منه بمـا يراه جهاداً مفروضا على مثله فى حالة العسرة التى وقعت فيها هذه الدولة الإسلامية ، ودفعا لشر الضررين عن ديار الإسلام ، ولم تمنعه شيخوخته ولا كرهه لفساد الحاكمين أن يستجيب

لنداء الضمير وأن يتحامل على ضعفه ويسافر إلى أواسط جزيرة العرب ، ليقنع صديقه مؤسس الدولة السعودية الثانية بخوض غمرات الحرب إلى جانب الدولة العثمانية نزولا على حكم العلاقات الإســـلامية وضرورات الأوضاع القائمة .

وتحمل مشاق السفر البعيد بتلك الوسائط القديمة المعروفة من ركوب الجمال ونحوها ، وسافر إلى الرياض ليلة الأحد عاشر المحرم سنة ١٣٣٣ هـ سالكا طريق حلب ودمشق ففلسطين فالحجاز فنجد ، وأفاد من اجتياز هذه البلاد خبرة واسعة بأحوال البلاد العربية يطول حديثها .

أما الأمير السعودى فقد أحسن لقاء صديقه غاية الإحسان ، وخرجت عاصمته لاستقبال وفد الإمام الذى استبد جهاده الدينى بإعجابها ، وعدت وفادته عليها من مواسمها الجميلة فى هذه الحياة .

وعقد الجانبان فى ظلال الآصرة الإسلامية العامة وعلاقة الود الروحية الخاصة اجتماعات درست فيها مطالب الدولة التى يحملها الوفد ، والحالة الناشئة من هذه الحرب فى البلاد العثمانية ، ولا سيما العراق ، فى ضوء الحقائق وممكنات القدرة المجدية دون العواطف ، إذ كانت العواطف لا تغنى وحدها فى مواطن الجد والشدائد ، وانتهت بأن شارك الأمير الوفد فى هذا الشعور الإسلامى النبيل الذى حمله على قصده إلى هذه الشقة القصية من الأرض ، وما ينبغى للمسلم من نصرة أخيه إذا ضامته الشدائد ، مؤكداً أن تدينه يأمره بذلك ويحضه عليه ، وسجاياه العربية تملى عليه نسيان ثاراته عند الدولة العثمانية فى ساعة العسرة ، وأنه لن يصدر منه نحوها فى محنتها إلا الصفاء ، وود لو يتاح له أن ينضم إليها .. لكن ما يراه من قوة أعدائها وضعفها المتمثل فى عجزها عن إمداد جيوشها فضلا عن إمداده بما يضمن له التغلب ، ويفرض عليه التزام الحياد ، لأن دخوله فى الحرب ينتهى إلى تقويض إمارته الصغيرة الناشئة ولا يفيد الدولة العثمانية شيئاً .

واقتنع السيد الألوسى بحجته ، ووثق بما أكده له من الحياد التام وعدم الانضمام إلى الإنكليز بوجهٍ من الوجوه .. فهذا الموقف — كما رآه السيد الألوسى — هو فى نفسه فوز أيضا للدولة لا شك فى ذلك ، وهو إذا لم يستطع أن يجلب النفع لها فلا أقل من أن يضمن لها درء الضرر عنها ، ودرء الضرر ضرب من المنافع فى حد ذاته .

وأنهى الوفد إلى الدولة النتيجة التى توصل إليها فى هذا المؤتمر ، وعاد أدراجه إلى بغداد فبلغها فى ٢٧ جمادى الأولى. ولما حصل السيد الألوسى فى دمشق، علم أن نفراً من أعداء الإصلاح المنبثين فى كل مكان كادوا له عند جمال باشا السفاح قائد الجيش الرابع فى سورية — الذى بلغ إرهاقه للساسة العرب الغاية — فألقوا فى روعه أنه هو الذى زين لصاحب نجد الامتناع عن الانضمام إلى الدولة ضد الانكليز وأوحى إليه التزام الحياد .. وذلك ليوقع جمال باشا به ، ويأخذه عند وصوله إلى دمشق أخذ عزيز مقتدر . لكن جمال باشا صم أذنه عن سماع هذه الفرية على السيد الألوسى ، لأنه كان أعرف الناس بما يتمتع به من سمو الذات وصدق الإيمان وصفاء النية والتجرد والإخلاص وحسن التقدير للمستقبل ، وبما يكنه من حب الخير للجامعة الاسلامية ومن البغض الذى لا حد له لاستعلاء الأفرنج الطامعين فى الاستيلاء على ممالك المسلمين.

ذكر له ذلك جمال باشا نفسه وهو يتحدث معه فى نتيجة مؤتمر الرياض التى لم تسؤ الدولة ، ولكنها لم ترتح لها .

هذا ، وقد ذهب المستشرق الفرنسى لويز ماسينيون (فى مجلة العالم الإسلامى الفرنسية Revue de Monde Musulman) إلى أن ندب الدولة العثمانية السيد الألوسى إلى مؤتمر الرياض كان لإصلاح ذات البين من أمير نجد عبد العزيز آل سعود وأمير شمر ابن الرشيد .

ولست أنفى ذلك ، فربما كان هذا الموضوع من المواد الفرعية التى تناولها

مؤتمر الرياض ، غير أن الغرض الأول منه كان ماذكرته ليس غير .

في أواخر عهده بالدولة العثمانية :

ثم كانت الحوادث التي غامت على آفاق العراق طوال حرب العثمانيين والبريطانيين وما صاحبها من استفحال فساد الدولة وارتثاث الأحوال وانبهام المصاير ، مثار غصصه وأحزانه وتشاؤمه ، غير أنه استعان على تخفيف حدتها في نفسه بالصبر الجميل والاستغراق في العبادة والانصراف إلى التأليف والتدريس على جاري عادته .

ثم إنه غلبـــه الجزع من هذه الحوادث في آخر أيام الدولة والجيوش الانكليزية مشرفة على أبواب بغداد ، إذ المصاير غامضة مبهمة ، وإذ سما الشر إلى فريق من أهله الأدنين من رجال ونساء وأطفال قررت قيادة الجيش العثماني نفيهم إلى قرية نائية في أواسط الأناطول كما فعلت بمن نقمت منهم من أهل الحلة وغيرها ، وهم حريون بالتأساء والتعزية ، لا التنكيل بهم على هذا النحو الشديد القاسي الذي لا مسوغ له . . وذلك أن توهمت في أحد ميامين شبانهم (١) المخامرة على الدولة والفرار إلى معسكر الإنكليز ، على حين قد سقط شهيداً مضرجاً بدمه على أديم الوطن برصاص الإنكليز وسحقت جثمانه سنابك خيل المغيرين . وهو قرار غاشم ، لو تحقق الباعث عليه لما جاز اتخاذه أيضاً ، فما عهد في الشرائع السماوية ولا الوضعية قانون يأخذ الأبرياء بجرائم المذنبين . . لكن ، أدرك التوفيق هؤلاء المرزوئين بأن وُكِلَ تنفيذ القرار إلى معاون والي الولاية الذي اتفق أن كان صديقاً حميماً لشقيق (٢) هذا الشاب الشهيد وأن كان الجيش موشكا أن يخلي بغداد ،وكان عنده العلم بقرار إخلائها

(١) هو السيد عبد المطلب بن أحمد شاكر بن أبي الثناء شهاب الدين محمود الألوسي،وكان ضابط احتياط .

(٢) هو الأستاذ السيد محمد درويش الألوسي ، عضو مجلس الإدارة يومئذ .

بعد أيام من ذلك، فأملى عليه كرم النحيزة أن يجعل الإحسان إلى هذه الصداقة خاتمة المطاف ، فأطال حبل التنفيذ الموكول إليه أياماً ريثما يدنو يوم الجلاء فيسقط عنه هـــذا التكليف . وبذلك انجلت عنهم الغمة وسلموا من الشر المبيت لهم .

كاد يذهب هذا الحادث — فى أوائله — بنفس السيد الألوسى لولا تعوده الاصطبار ، ولياذه بالإيمان ، وآلمه أشد الإيلام أن تعصف الدولة العثمانية بأهله الأدنين فى غير رحمة ولاهوادة ، وألا ترعى لبيته إلاّ ولاذمة ، وطالما أخلص رجاله لها وأيدتها ألسنتهم وأقلامهم وأعمالهم ولم يخيسوا لها بعهد ، ولم يكن ما أتاحته لهم من مغانم كفاء ما أنزلت بهم من مغارم من غير إثم يأثمونه إلا سوء الظنون الذى توحى به طبائع الاستبداد إلى الحاكمين المغلوبين على أعصابهم .. لكنه عد هذا الحادث آخر سهم ينفذ إلى قلبه من سوء إدارة عمال هذه الدولة التى تسلم أنفاسها الأخيرة ، وهو مع ذلك آسف عليها حزين على مصيرها .

بعد احتلال بغداد :

ودرجت سيرته بعد احتلال الانكليز بغداد على ما رأينا من وتيرتها السابقة ، لم يغير شيئاً منها ، إن لم يكن قد التزم فيها «الألزم من لزوم مالايلزم» وعاش على القناعة والزهد كما عاش من قبل ، وبالغ فى الترفع صيانة لمقامه وإكراماً لنفسه .

ولقد حاسنه الانكليز منذ أول دخولهم إلى بغداد .. وكان مصدر هذه المحاسنة سمو ذاته وتجرده ، وما شهدوا من عظم مكانته عند المسلمين وعند أعيان أمراء العرب كالذى استعلن من أمثلته لهم من البرقية التى تلقتها القيادة العسكرية عند أول احتلالها بغداد من أمير الرياض عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود مستفسراً عن حالة السيد الألوسى ومآله ، فلفت ذلك أنظارهم

إليه ، فاهتموا بشأنه كما ينبغى أن يكون الاهتمام بشأن الكبير . ثم أرادوه على ولاية الإفتاء فأباها ، وقال : «الإفتاء عمل دينى يقوم به الفقيه فى الإسلام احتسابا ، وليس منصبا وراتبا وقيوداً رسمية . » ثم أرسلوا رسلهم إليه ، وفاوضوه فى إحداث منصب أعلى وهو قضاء القضاة ، فقال لهم : « إن هذا المقام يستلزم علما زاخراً ، وذمة لاغبار عليها ، ووقوفا تاما على الفقه وأنا لا أشعر بذلك ، ووجدانى يحكم على بأنى غير متصف بالصفات المطلوبة لمن يكون قاضى قضاة المسلمين . » واجتاحت العراق — من أثر الحرب — أزمة اقتصادية عنيفة ، اشتدت به وبأمثاله من ذوى الدخل اليسير المحدود . ولم يكن راتب التدريس الزهيد الذى لا يسد خصاصته ليكفيه مؤونته القليلة فأكل الجشب ، وجلس على الحصير وتخت الخشب وارتدى العادى الرخيص من الثياب لأنه « يقنع بما بين يديه يقع » كما قال للمعترض عليه . . وتسامعوا بذلك . فبادروا وحملوا الذهب إليه . فرده فى شمم وإباء . وقال : « خير لى أن أموت جوعا من أن آخذ مالا لم أتعب فى كسبه » وساءه أن تشيع عنه الحاجة والخصاصة ، والفقر والغنى عنده إنما هما فى النفس لا فى المال ، لكن أكثر من فى الأرض لا يعقلون هذا ولا يريدون أن يعقلوه .

وقد تحدث بكل هذا الوسيط الذى لابس هذه الأحوال بينه وبين الانكليز وهو تلميذه اللغوى الأب أنستاس الكرملى ، وتلى كلامه على رؤوس الأشهاد فى المجمع العلمى العربى بدمشق فى الحفلة الأربعينية المشتركة بين الألوسى والمنفلوطى ، وسأروى لفظه قريبا فى موضعه من هذه الدراسة .

والسيد الألوسى فى هذا وماإليه من سجاياه ومزاياه إنما كان يصدر عن فلسفة أخلاقية رفيعة — كما أشرت إليها فى مطلع كلامى على عصره — وهى تنبع من نفسه الأبية الكبيرة هذه التى أكرمه الله بها وأغناه ، والتى غذتها آداب القرآن وصقلتها التجارب فأبرزتها فى أجمل حلية ورواء ، وهى هى التى جعلت الكلام على الجانب المادى أصغر جزء فى ترجمته ، وجعلت الغلبة فيها لسيرته العلمية العملية ومعنوياته وزهده وعبادته .

وهو إذا كان قد عودنا أن نجده دائما مستغرقا فى هذه السيرة المثلى فى شبابه وكهولته حين تفتحت حياته لمباهج الدنيا وحين بلغ أشده ، فأخلق به فى عهد الشيخوخة والعمر قد نصلت بقايا الشفق فى ذرواته أن يكون استغراقه فيها أشد استغراق عرفه أهل الزهد ، وألا يعرف فى هذا العهد غير صبابة من الاستئناس بأحاديث اللذات وزواره الذين يفدون على داره فى الأماسى وفى أصباح الجمعات ، وأن تكون أوقاته مصروفة فى العبادة ، وفى تلاوة القرآن وحفظه الذى أكب عليه فاستوفى حفظ ثلثيه إلى قبيل وفاته وفى تدريس الطلاب فى طرفى النهار ، وفى تأليف أحاسن الكتب فى أنساب العرب وفى قوانين العقوبات وحدود المعاصى عند العرب فى الجاهلية ، وفى اللغة وفى تطابق القرآن وعلم الفلك الحديث وفى نسخ المختار من تراث أئمة الفكر الإسلامى وتحقيق هذا التراث والسعى فى طبعه إشاعة للعلم الصحيح وحفاوة بالأفكار والمدارك العالية .

ولقد سموت بطرفى فى الأعوام الأربعة الأخيرة من عمره التى لازمتُ الأخذ فيها عنه ، إلى ذروة هذه السيرة الرائعة الماتعة ، وشاهدت فى عالمها العلوى الذروة من اندماج الانسان الحى فى الفضائل العليا وفنائه فى طلب القيم الخالدة ، ولم أر بعدها — وأقول ذلك فى كثير من التأمل والاحتراز — إلا صغائر السير فى الوقوع كالزواحف على صغائر الأفعال .

ملامح شخصيته

ومن تمام هذا التعريف بالسيد المترجم له أن نرسم شكله وشارته وقسماته ونصف ملامح طبيعته ومزاجه وأخلاقه ، لتتألف من ذلك صورة حقيقية أو كالحقيقية لظاهره وباطنه ، تعين على تخيله ، وتقوم مقام رؤيته ، لتزيدنا معرفة به أو لتكمل معرفتنا به ، فني التصوير الدقيق لظاهر امرىء وباطنه ما يقربه من نفوسنا ويزيد فى فهمنا له .

وصاحب هذه الترجمة ، قد كان طرازاً عجيباً فى تناسق ظاهره وباطنه ، وتشاكل صورته ومزاجه . وإذا ارتاب مرتاب فيما يزعمه أصحاب الفراسة وأضرابهم من قيام التلازم بين ملامح صورة الإنسان وطبائعه ، ودلالة بعض ذلك على بعض ، كانت شخصية السيد الألوسى من أوضح الشواهد لهؤلاء على تأييد « نظريتهم » هذه ونفى الارتياب عنها كلا أو بعضاً . . فقلما تحقق فى إنسان ما تحقق من تشاكل صفاته البدنية والنفسية والأخلاقية ، ومن قيام هذا التلازم بين ملامح صورته وطبائعه ، ووضوح ذلك للمتفرس فيه من أول نظرة يلقيها عليه .

وقد كان عظيم الهيأة رائعها ، يستشرف الناظر إلى تملّيه ، نخماً فى غير غلظ يكره فى الأجسام ، شديد الأسر ، منسجم الأعضاء ، معتدل القامة ، أقصر من المشذب وأطول من المربوع ، مرتفع الصدر ، مشرق الوجه مستطيله بعض الاستطالة ، أبيض مشرباً حمرة خفيفة ، عالى الجبين ، أزرق لون العين فى غير جهارة ، أقنى العرنين أشم ، ضليع الفم ، فصيح اللسان ، فى صوته جهارة مستحبة منسجمة مع جهارة خلقه ، ذا لحية ليست بالكثة ولا الخفيفة ولا بالطويلة ولا القصيرة ، تحيّف بياض المشيب ما يبدو من صفرتها الخفيفة الناصلة ، ونال من بصره إدمان القراءة والكتابة وطول

الاستصباح بأضواء الشموع الخافتة ، حتى جعله إذا رأى السواد القريب المقبل استشرف له وأحد نظره إليه ليتبين صاحبه . وكان من شارته أنه يعتم بعمامة بيضاء ناصعة أقرب إلى الصغر فى غير عناية ظاهرة بهيأتها ، ويفرغ على ثيابه جبة غير متنوق بها ، ولا معتن إلا بنظافتها ونظافة بدنه وثيابه .

واستعلن من صفاته النفسية أنه كان مرهف الحس ، شديد الانفعال والتأثر ، سريع الغضب سريع الرضى ، سليم دواعى القلب ، مفرط الذكاء إفراطاً يكاد يستشف بالحدس اليقين ، راجح العقل حصيفه ، حر الضمير ، جرىء الفؤاد لا يهاب قوة فى الأرض ، وافر النشاط ، ميالا إلى الجد ، مستغرقا فى العمل المتواصل لا يكل منه كأنه يجد فيه راحة نفسه .

وجملة هذه الصفات كانت بادية السمات على قسماته وفى نظرات عينيه ونبرات حديثه وصوته ، ومستعلنة فى تصرفاته وسلوكه ، لا خفاء بها يضطر الإنسان إلى كدّ ذهنه لاستجلائها .

وكانت أخلاقه هى أخلاق العظماء ، عظماء النفوس طبعا لا تكلفا ، التقت على تكوينها عنده عوامل الوراثة وعوامل النشأة والتربية ، وغذاها طول التماسه الأسوة فى أخلاق القرآن وأدب النبوة ، وعمله على تزكية عقله وقلبه ، وترسمه شمائل أئمة سلف الأمة الهُداة المهديين .

ولا ريب فى أن مردّ هـــذا كله إلى ما استقر من الاستجابة الطبيعية فى فطرته إلى الانفعال بالمثل العليا فى هذه المصادر الرفيعة .

ومن هنا سيطرت على سلوكه فى جملته نوازع الإيمان العميق بالله ، ومنـازع الورع والتقوى ، والزهـد الذى يعصم النفس من الانخذال أو الانحراف والاستسلام ويحقق لها السموّ فى جميع الأحوال ، فحرر نفسه من سلطان نفسه ، وأخضع أهواءها وشهواتها لسلطان إرادته ، فكبر على كل سلطان آخر ، وآنس لذته فى التجرد المطلق لخدمة الأمة وإيثار مصالحها

العامة على مصالحه الخاصة . ومن أجل أن يتسنى له ذلك على أكمل وجه حرر نفسه من الصوارف والشواغل والقيود ، فلم يتزوج ولم يطلب نسلاولا منصبا وقصر جهده كله على العمل والإنتاج ، واكتفى بالقناعة وهى الكنز الذى لا يفنى فى نظر المصلحين الأخلاقيين وأصحاب اللبانات الشريفة العالية ، لا يقيده قيد ، ولا يشده إلى موضعه غرض قريب من أغراض هذه المادة الزائلة . . دأب على ذلك من بداية إشراق الوعى فى نفســـه إلى مغرب حياته . ثم حرر عقله من سلطان التقليد الذى يبطل الإرادة الحرة ويميت روح الإبداع ويشل حركة العقل ، فبعدت مطارح أفكاره ، وطلب الإصلاح ووقف فى مصاف جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وحارب الفساد الذى أصاب الحياة الدينية ، وجند لذلك عقله وقلبه ، وعاش فى حرب الانحراف عن الجوهر . . هذا الانحراف الذى غلب على الجماهير ، ومال بعقولها إلى الخرافة ، وبعقيدتها إلى نوازع الوثنية ، وبحياتها إلى الجمود والركود . . ولقى فى هذه السبيل الألاقى من خصومات الأفراد والجماعات ، ولم ينثن له عزم ، بل مضى فيها وهو أصـــدق عزما وأنفذ سهما وأبعد مرمى ، واحتمل العنت كله والحرمان كله بصبر جميل وهو صبر المؤمنين الأخلاقيين الأبرار الذين يؤثرون خير الجماعات ، وأخلاق الشجاعة والصبر والإيثار ، هى حلية الأشراف وأخلاق النبيين والصديقين والشهداء .

والشواهد على هذا وما إليه ، لا تعوزنا فى هذه السيرة . فإذا عدنا إليها ، والتمسنا فيها هذه الشواهد ، وجدناها تنتظمها مطلعا ومقطعا ومختتما ، وقد انتثرت صورها الجميلة فى ثناياها من بدايتها إلى نهايتها ، وترقرقت فيها هذه المعانى الأخلاقية الشريفة ، وكانت هى بواعث وجودها ، ومنها تجسد هذا المظهر الرائع من سمو الذات .

ومن هنـا كانت هذه السيرة طرازاً فـذاً فى السير ، ولا سيما سير المعاصرين . . لفتت إليها الأنظار فى الشرق الغرب ، وكانت الأخلاق التى

توجهها مثلا مضروبا ، وقد عرفها البعيد على حقيقتها الناصعة كما عرفها القريب ، وتناقلها غير المسلمين كما تناقلها المسلمون ، بل كان أسبق رواتها والمدونين لروائعها من غير المسلمين ، خبروها بأنفسهم ، ورأوا فيها العجب فرووه للناس مكبرين له معتزين به ، لأنه من المعانى الأخلاقية الإنسانية المشتركة .

وأحب أن أثبت هاهنا مثالين مما رواه هؤلاء خاصة ، لدلالته الخاصة ، ولحاجة الأجيال إلى تروّى المعانى الكبيرة وتفهم طبيعة الحياة الإنسانية فى مظهرها السليم الصافى .

المثال الأول رواه مسيحى عربى ، والمثال الثانى رواه مسيحى فرنسى ، وكلاهما كان تلميذاً للسيد الألوسى خبيراً به ومعجبا بأخلاقه وفضائله .

وفى المثال الأول جمع الباحث اللغوى الأب أنستاس مارى الكرملى طائفة من خصائص شخصية الالوسى ، ونثرها على طوائف من الأعيان وأعلام الأدب فى المجمع العلمى العربى بدمشق فى حفلة تأبينية مشتركة بين الالوسى والمنفلوطى الكاتب المصرى المشهور ، ومما قال فيه :

وكان وصل إلى حالة قاصية من الحاجة إلى المال فى عهد الاحتلال . . . فلما عرف ذلك المعتمد السامى برسى كوكس أهداه(١) ثلاث مئة دينار ذهبا انكليزيا ، وكلفنى بتقديمها(٢) إليه . فلما أتيته بها ، رفض قبولها بتاتا ، وقال خير لى أن أموت جوعا من أن آخذ مالا لم أتعب فى كسبه ، فألححت عليه إلحاحا مملا مزعجا ، فأبى ، وقال : لا تكثر ، لئلا أطردك من بيتى طرداً لا عودة إليه .

إلا أن فاقته كانت وقرأ علىّ وعلى محبيه ، وطلب إلىّ بعض الاصدقاء أن أجد له منصبا يثرى منه . فتكلمت مع أولى الامر ، وتمكنت من أن يعين

---

(١) يريد « أهدى إليه » .

(٢) الباء زائدة ، لأن فعل التكليف هذا متعد بنفسه .

قاضى قضاة المسلمين فى العراق . فلما وقف على تنصيبه ، أبى ، وقال لى : إن هذا المقام يستلزم علما زاخراً ، وذمة لا غبار عليها ، ووقوفا تاما على الفقه ، وأنا لا أشعر بذلك ، ووجدانى يحكم على بأنى غير متصف بالصفات المطلوبة لمن يكون قاضى قضاة المسلمين .

وفى المثال الثانى أوجز المستشرق الفرنسى لويز ماسينيون الإشارة إلى إباء الألوسى وأنفته ، فقال فى حديثه عنه فى مجلة العالم الإسلامى الفرنسية :

« . . ولقد أظهر لجميع أصحاب الحكم فى العراق على اختلاف أنواعهم من الأنفة والإباء ما لا ينكره أحد ، سواء أكان أولئك الحكام تركا أم بريطانيين أم هاشميين ؛ وإباؤه هذا الفذ لفت إليه جميع الأنظار ، واستحق له شرفا مزدوجا . . » وتحدث عن نفيه ، وعن عمله فى سبيل الوحدة الإسلامية ، كما أشار فى تفسير إبائه وأنفته إلى رفضه منصب قاضى القضاة .

منزلته وأثره فى عصره

أراد بعض الكاتبين تحديد منزلة الألوسى العلمية وأثره فى عصره ، فى كلام عام عقـــده لذلك ، ذهب فيه إلى أنه « من النوابغ الذين يعيشون فى التاريخ ولا يعيش التاريخ بهم » . وعلل وضعه له فى هذا الإطار « بإيغاله فى البحث عن الماضى ومخبآته ونسيانه نفسه وماحوته من الأسرار » . ثم خرج من هذا التعليل إلى الحكم على جملة مذهبه فى الحياة ، فعدّ نزعته التاريخية على هذا النحو الذى تخيله « ظاهرة من ظواهر (إنكار الذات) مما ولدته الفلسفة العتيقة ، وأثبتت الحياة العملية بطلانه فى هذا العصر » .

وهذا التصوير للألوسى على هذا النحو ، لايصدق عليه تأصيلا وتفريعا ووصفاً وتعليلا . فهو تصوير مبنى على الاستقراء الناقص ، والاستقراء الناقص يقلب صور الأشياء فيجعل أعلاها أسفل وأسفلها أعلى .

فنحن إذا عدنا إلى سيرة الألوسى ، أرشدتنا هذه السيرة إلى نوع جهده ، فإذا هو قد صرفه إلى ثقافة عصره كلها ، وهى ثقافة متعددة الوجوه والأصول تمازجت فيها أصول عربية وإسلامية وأخرى دخيلة إغريقية وفارسية ، ولم يقصره على التاريخ وحده قصراً يبيح لباحث أن يضعه فى مثل هذا الإطار الضيق . فالتاريخ فى بعض فروعه إنما كان « بعضاً » من ثقافة الألوسى ، ولم يكن « كلا » استغرقه الإيغال فيه على هذا النحو الذى ينسى الإنسان نفسه ويشيع فيه الغفلة عن غيره .

أما التفريع على هذا الحصر باستنباط ظاهرة (إنكار الذات) عند الألوسى فتبطله تلك السيرة العملية الخصبة الزاخرة بالإنتاج وآثار (استعلان الذات) ودوافعها الأخلاقية الرفيعة التى تتوجت بالإيثار العظيم : هذا الخلق الرفيع الذى طبع حياة الألوسى بطابع التجرد المطلق وأثاره إلى التفرّغ ـ التفرغَ كله للحياة

العلمية الخالصة المنتجة الولود . والإيثار الذى تستعلن به الذات شىء ، وإنكار الذات الموصوف هنا شىء ، ولا جامعة بينهما إطلاقا .

إن منزلة عالم عظيم كالألوسى ، إنما تتعين بالاستقراء التام لأطوار سيرته ومجالاته الذهنية والعملية ، ودرس طبيعة عصره وأحوال ناسه ورجاله ، وموازنته بأهل طبقته من حيث المعرفة والتفكير والإنتاج ومناهج العلم التطبيقية والتأثير فى الحياة العقلية والعلمية والأدبية ، وتقييم كل أولئك فى موازين تقويم الحقائق وتصحيح العقائد وإملاء الفراغات .

ونحن إذا طبقنا ذلك على الألوسى ، استطعنا الوصول إلى حقيقته ، ووضعناه حيث وضع نفسه ووضعه جهده . وقد يبيح لنا ما علمنا من شأنه ومن أحوال أهل طبقته من العلماء أن نضعه فى صف أصحاب النهضات العلمية الذين أثروا فى عصورهم فى النطاق الذى جاهدوا فيه على نحو من الأنحاء .

ومن السهل أن نمتحن صدق ذلك من أيسر السبل وأقربها منالا .. ذلك بأن نرجع إلى سيرته ونستعرض إنتاجه ، ثم ننظر إلى عصره ببغداد ونفترض خلوه منه وعدم ظهوره فيه ، فماذا الذى نتبينه حينئذ فى هذا العصر من آثار هذه الثقافة العربية الإسلامية التى منحها الألوسى عقله وقلبه وحياته فأذكى شعلتها وكتب لها صفحة خالدة بل تاريخاً فى تاريخ العراق العلمى لم يكن ليكتب فيه لولاه ؟

ماذا نتبين فيه — مثلاً — من المؤلفات المنهجية القائمة على الاستيعاب وصحة المناهج وقوة الملاحظة والنقد ؟

وماذا نتبين فيه من الدراسات اللغوية العميقة التى تصف لنا عبقرية اللغة العربية وتكشف عن طاقتها الحية وقدرتها على مجاراة الحياة ومسايرة الحضارة وإمداد العلوم والفنون والصناعات بما تحتاج إليه من مصطلحات وألفاظ ؟

وماذا نتبين فيه كذلك من عناية بالتاريخ القومى الاجتماعى ، ومن تسجيل لأوضاع أوطاننا العربية ، ومن تدوين لسير علماء العصر وأدبائه ؟

ثم ماذا نتبين فيه ، فى جوانب الحياة الإسلامية ، من أطوار الإصلاح الدينى ، ومن آثار الفكر المستقل المناهض للجمود والتقليد ، ومن الجهاد الدائب — فى غير ونَاء — فى سبيل تطهير العقيدة وتصفيتها مما دسه فيها العابثون بالاصول والمنحرفون عن الجوهر من الشعوبيين والباطنيين وورثة اليهود ومن إليهم من أعداء العروبة والاسلام ؟

هل نجد هذا كله على هذا النحو فى عصر الالوسى ببغداد حين نفترض خلوه من الالوسى وعدم ظهور الالوسى فيه ؟ وإذا وجدنا ذلك فى صورة من الصور ، فهل نجده مجتمعاً موفوراً كله فى فرد على هذا المثال من الحظوظ الكبيرة التى توافرت فى الالوسى ؟ ثم ماطبيعة ذلك ؟ وماأثره فى الحياة العلمية والعقلية والادبية ؟

من خلال هذه النظرات وحدها ، نستطيع أن نتبين منزلة الالوسى ، وندرك أثره فى عصره ، ونعرف كيف عاش به تاريخ الثقافة العربية الاسلامية فى هذا القرن الرابع عشر الهجرى فى العراق .

ولقد تبينا من جملة سيرته منزلته العلمية ، وطبيعتها وخصائصها ، وسيزيدها استعراضنا لانتاجه وماتميز به من تنوع وضوحا وانكشافا ؛ كما تبينا كذلك فى أثنائها مدى أثره فى عصره وملامح النهضة العلمية واللغوية والادبية التى انبعثت من جهاده ، وكان هو مصدر وجودها ببغداد(١) . وهى كما استعلنت فى شخصه ، استعلنت كذلك فى تلاميذه النابهين وهم مدينون بوجودهم العلمى له وفيما أنتجوا فى مختلف وجوه النشاط الذهنى من آثار قيمة فى الشعر

---

(١) يراجع الكلام على مدرسته .

والنثر والتأليف والتحقيق والنشر ، وتفصيل هذا يتطلب كتابا مستقلا ، يؤرخ الثقافة العربية الإسلامية فى القرن الأخـــير ببغداد . بل إننا لنلاحظ أثر الألوسى لا يقتصر على تلاميذه ، وإنما يتجاوزهم إلى طوائف من معاصريه فى العراق وفى آفاق أخرى نائية ، وهو يبدو واضحا فى إنتاج كثير من العلماء والأدباء فى العراق والشام ومصر ونجد وتركية والهند والروسيا . وهؤلاء العلماء والأدباء أصناف وأجيال، يتفاوتون فى السن فمن لدات وأقران له ومن شيوخ يكبرونه كثيراً ، ويتفاوتون كذلك فى الأجناس والأديان والمذاهب وفى المواطن أيضا قربا وبعدا . وأثره فى إنتاج هؤلاء جميعا يظهر فى صور مختلفة ، تلقى على جوانب شخصيته العلمية أضواء قوية تجلوها على حقيقتها .

فمن صورة فى شعر الشعراء يستعلن فيها الاكبار لعبقريته ونوازعه النفسية والاصلاحية . وقد مدحه شعراء كثيرون فتنوا بصفاته فقالوا شعرهم وهم لا يرجون منه مالا ، لأنهم يعلمون أنه لا يملكه ، ولأنهم لم يكونوا من هؤلاء الذين يتكسبون بالشعر . ومن الشعر الذى مدح به ما كان مصدراً لانتاج أدبى غير قليل ، كالذى مدحه به الشاعر الكبير أحمد بك الشاوى البغدادى فاستتبع ذلك مكافأته عليه بشرح شعره شرحا أدبيا لغويا فيه إمتاع وإفادة ، وتجارىَ الشعراء فى النسج على منواله : مباراة حينا ، وتخميسا حيناً آخر ، ولست استطيع حين أذكر هذا أن أغفل الاشارة إلى تخميس السيد محمد سعيد النجفى من كبار شعراء العراق خاصة لأنه من الطراز الممتاز ، وغير هذا كثير جداً لا أريد استقصاءه .

وصورة ثانية تتمثل فى تقاريظ العلماء والأدباء لكتبه حيناً ، وفى ترجمة بعض هذه الكتب إلى اللغة التركية حينا آخر ، وسنذكر ذلك فى موضعه من هذه الدراسة .

وصورة ثالثة نستجليها فى استحسان المؤلفين من علماء الأمصار لدراساته ، ونقلهم آراءه إلى كتبهم ، وإيثارهم لبحوثه بالرواية والاختيار . وأمثلة هذه

الصورة كثيرة أيضا ، نجدها فى مؤلفات كبار المحققين العرب من أمثال أحمد تيمور باشا المصرى الذى أثر فى مختاراته طائفة من بحوث الالوسى فى «التلميذ» و «الحشوية» و «نقض القاعدة النحوية فى جمع ما جاء على مفعول ومفعل جمع تصحيح» ، كما نجدها فى مؤلفات الباحثين من غير العرب كالذى أثره رضاء الدين فخر الدين صاحب مجلة حيرة فى أورنبرغ من بلاد القرم — من دفاعه فى «غاية الامانى» عن شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية الحرانى إلى كتابه الكبير فى مشاهير الرجال ، وهو عدة مجلدات ، أفرد المجلد الخامس منها لهذا الامام المجدد المشهور ، وغير هذا وذاك من أثر الالوسى فى كتب معاصريه كثير .

وصورة رابعة تتمثل فى احتكام الأدباء إليه فيما يكون بينهم من منازعات أدبيـــة ، أو خصومات يبعث عليها التحاسد والتنافس . ومن النوع الأول احتكام الأديب يحي السلاوى المغربى صاحب جريدة (الاعتدال) فى استنبول إليه فى شعر ارتضاه وأنكره غيره . ومن النوع الثانى تصديه لاصلاح ذات البين فى خصومة نشبت بين العلامة الباقعة أحمد فارس الشدياق وبين السلاوى هذا خرجا بها إلى المهاترة وإذاعة المقابح والمعايب فقال كل منهما فى الآخر ماقال مالك فى الخمر ، هذا فى (الاعتدال) وذاك فى (الجوائب) ، وطال الخطب بينهما فى هذا الشر ، فتوسط بينهما ، وكتب فى أغراض النقد ووظيفته كلاما حكيما خلع عليه الأدب والسكينة ، فكان من أثره فى نفس أحدهما ، وهو السلاوى ، أن عدّ هذه الحكومة من أفضل العدد لديه وأجل النعم عليه .

وصورة خامسة تبدو لنا ملامحها فى طلب المؤلفين العون العلمى منه ، وقد نرى فى هؤلاء من هم فى طبقة شيوخه ، وأذكر من بينهم أحمد عزة باشا العمرى الموصلى من شيوخ شعراء العراق ومن كبار تلاميذ أبى الثناء الألوسى ، فقد استعان وهو فى استنبول ، وفيها خزائن الكتب النادرة ، بالشاب الألوسى الحفيد ببغداد فى تأليفه «السيرة العمرية» ، وطلب منه العون العلمى ،

اعترافاً منه بنبوغه ، فلم يضن عليه من مصادر معرفته بما يسوى منه جملة كتابه أو قسما مهماً منه . أما من هم دون طبقته فى السن فإحصاؤهم عسير .

وصورة سابعة تتمثل فى صلات علماء الأمصار به وهى تلم جملا من الأغراض : من طلب اجازة عامة مطلقة منه ، ومن استعانة به على الدلالة على مصادر الدراسات العربية والاسلامية ، ومن رغبة إليه فى نسخ كتبه وبحوثه ، ومن استفتاء أو استرشاد ، وغير ذلك مما حفل بأمثلته الكثيرة كتاباه « رياض الناظرين فى مراسلات المعاصرين » و « بدائع الانشاء » . وقد ضمنهما أعداداً كبيرة من رسائل علماء الأمصار إليه من أهل المشرق وسائر الأقطار . وهى وحدها كافية فى تعيين مكانته العلمية فى عصره وبيان أثره فى معاصريه .

ومجال القول فى هذا الباب متسع جداً . قد نستطيع أن نسوى منه كتابا مستقلا . وفيما تحدثنا به عنه غنى عن سواه . فلنستعرض كتبه . ولنتبين منها مجالات ذهنه وقلمه .

مؤلفاته

أولع الألوسى بالتأليف ، وتعلق به منذ نشأته الأولى وهو يطلب العلم ببغداد ، فكتب أول مؤلفاته فى سن العشرين ، أو الحادية والعشرين ، ومضى فى مزاولة البحث والتدوين إلى آخر أيامه فلم يترك القلم من يده إلا أياماً معدودات فى مرض موته . وقد أجال قلمه فى نواحى شتى من المعرفة، وألف فى علوم وفنون مختلفة ، حتى كانت طبيعة التأليف إحدى ملكاته القوية . . وقد أدرك أهل عصره قوته العجيبة فيه ، وبهر بعض علماء الأقطار العربية ما شهده من قوة هذه الملكة وفيوضها على قلمه فى تأليفه فى شهر واحد هو شهر الصيام كتابه « غاية الأمانى » فى سبعين كراساً بياضاً من دون تسويد (١) . وهذا الكتاب هو مظهر علمه بالمذاهب الكلامية فى الإسلام ووقوفه على حكمة الدين وأسراره ، ومجلى أفكاره الاصلاحية وقوة عارضته فى الجدال وسطوة قلمه فى النضال .

على أن من الواضح أن آثار الانسان تتفاوت فى العادة بحسب سنه ، وما يتاح له فى كل سن من تجربة واطلاع . والألوسى لا يشذ عن هذه القاعدة فى مؤلفاته .

ونلاحظ أنه ترك كثيراً من مؤلفاته فى المسودة ، فلم يعاود النظر فيها ، لأن غرامه بالتأليف كان يدفعه دائماً إلى ارتياد رياض أنف ، ويصور له أن إنفاق الوقت فى تدوين شىء جديد خير من إنفاقه فى إعادة النظر فيما فرغ منه وأجدى ، وأن المعاودة سهل خطبها إذا دعت إليها الداعية .

ولقد تتبعت مؤلفاته ، فبلغ ما اهتديت إلى معرفته أربعة وخمسين كتابا

---

(١) كامل الرافعى : كتابى أعلام العراق (ص ١١٥) نقلا عن مجلة المنار. أما التواريخ التى أثبتها المؤلف فى جزءى الكتاب فتشير إلى تأليفه فى أربعين يوماً .

ورسالة ، عدا تقريراته ومنشآته وما حققه ونشره ، وبعض هذه الكتب يتألف من مجلدين ومن ثلاثة مجلدات .

واستطيع أن أقسم كتبه ورسائله خمسة أقسام :

١ — كتب دينية .

٢ — كتب تاريخية .

٣ — كتب فى العلوم الدخيلة والمسائل العامة .

٤ — كتب أدبية .

٥ — كتب لغوية .

(١) الكتب الدينية :

أما كتبه الدينية ، فهى مختلفة المباحث . منها كتب تتصل ببعض نواحى القرآن وبالعقائد والفقه والحديث وأصوله . ومنها كتب جدلية كان سبيله فيها الدفاع والحماية لا الهجوم والعدوان . وكتب أخرى فى الانتصار للدعوة السنية السلفية الاصلاحية أو فى نصرة بعض أئمة المسلمين كأبى حنيفة صاحب المذهب المشهور رحمه الله . وقد بلغت عدة هذه الكتب تسعة عشر كتابا وهى:

١ — كتاب مادل عليه القرآن مما يعضد الهيأة الجديدة : تتبع فيه الآيات المشيرة إلى الأجرام العلوية والأجسام السفلية ، وطابق بينها وبين نظريات الفلكيين . وهو يكشف عن موقفه من العلم والدين ، وفى مقدمته كلام يصوّر جملة هذا الموقف ، ولا بأس بإيراد زرْو منه . قال : شاع فى عصرنا قول فيثاغورس فى هيأة الأفلاك ، ونصره الفلاسفة المتأخرون بعد أن كان عاطلاً مشهوراً ، وهو القول بحركة الأرض اليومية والسنوية على الشمس ، وأنها هى مركز نظامها ، وأن الأرض إحدى الكواكب السيّارة ، وأنها سابحة فى الجو ، معلقة بسلاسل الجاذبية وقائمة بها كسائر الكواكب ، لا أنها كما ذهب إليه بطليموس فى الأفلاك كالمسامير فى الباب ، إلى غير ذلك من

قواعدها المشهورة وقوانينها المذكورة . وقد سماها الفلاسفة المتأخرون الهيأة الجديدة ، لكونها شاعت فى العصر المتأخر . وإلا فالقول بها متقدم جداً وقد رأيت كثيراً من قواعدها لا يعارض النصوص الواردة فى الكتاب والسنة ، على أنها لو خالفت شيئا من ذلك لا يلتفت إليها ولا نؤول النصوص لاجلها ، والتأويل فيها ليس من مذاهب السلف الحرية بالقبول ، بل لا بد أن نقول إن المخالف لها مشتمل على خلل فيه ، فإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح ، بل كل منهما يصدق الآخر ويؤيده » .

ألف هذا الكتاب سنة ١٢٣٩ هـ ، ونسخته الوحيدة عندى بخطى .

٢ — منتهى العرفان والنقل المحض فى ربط بعض الآى ببعض : وهو من منهج كتاب البقاعى الذى طبع حديثا ، ولست أدرى هل وقف عليه أو لا ؟ شرع فى تأليفه فى أوائل سنة ١٣٤١ هـ ثم حالت منيته دون أمنيته فى إتمامه .

٣ — الدلائل العقلية على ختم الرسالة المحمدية : ضمنه مباحث فى دلائل نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — ، وأنه خاتم الانبياء ، وأن الشريعة الإسلامية شريعة خالدة تبقى ببقاء العالم وتدوم ما دام نوع الإنسان ، وفضل محمد عليه الصلاة والسلام على غيره من الانبياء ، وأن شريعته أتم الشرائع وأكملها وأيسرها . كتبه سنة ١٣١٩ هـ .

٤ — كشف الحجاب عن الشهاب فى الحكم والآداب : شرح ألف حديث صحيح اختارها القضاعى فى الحكم والاخلاق .

٥ — مختصر مسند الشهاب فى الحكم : اختصرناه معا ، ونسخته بخطى فى خزانة كتبه .

٦ — الروضة الغناء شرح دعاء الثناء . هو باكورة مؤلفاته ، كتبه سنة ١٢٩٤ هـ .

٧ — كنز السعادة فى شرح كلمتى الشهادة : ألفه سنة ١٢٩٨ هـ .

٨ — عقد الدرر (شرح مختصر نخبة الفكر للشيخ عبد الوهاب بركات الشافعى): فى مصطلح الحديث ، فرغ من تسويده فى ١٨ شهر ربيع الأول سنة ١٢٩٩ هـ .

٩ — فصل الخطاب فى شرح مسائل الجاهلية للإمام محمد بن عبد الوهاب: يتضمن مئة مسألة خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أهل الجاهلية من الأميين والكتابيين ، نشر باسم « مسائل الجاهلية . . . » ، وطبع مرتين فى المطبعة السلفية بالقاهرة : الأولى فى سنة ١٣٤٧ هـ ، والثانية فى سنة ١٣٧٦ هـ .

١٠ — القول الأنفع فى الردع عن زيارة المدفع : رسالة فى مقاومة بعض مظاهر الوثنية التى راجت عند العوام ، والمدفع المذكور هو من مدافع السلطان مراد العثمانى التى استخدمها فى قتال الفرس لإخراجهم من بغداد ، وضع فى مدخل الشكنة العسكرية ببغداد رمزا للقوة ، واشتهر باسم « طوب أبو خزّامة » ، وقد نسجت حوله الأساطير وحكيت الغرائب من أمره فى فتح بغداد ، كأنّ ما استشعره البغداديون من ذل الاحتلال الفارسى قد دفع عامتهم إلى هذه الأقاصيص ، وكان شأنهم فى أول الأمر معه شأن المعجب ، ثم استحال الإعجاب مع الأيام إلى التبرك به وتقديسه ، فإذاهم ينذرون له النذور ويعلقون عليه التمائم ويقبلونه . وعظم ذلك فى نفوسهم حتى استعصى إقلاعهم عنه ولم تغن معه المواعظ فكتب الألوسى هذه الرسالة باحثاً فيها فى تأريخ هذا المدفع والمفاسد الناجمة منه ، وقدمها إلى المشير هدايَتْ باشا ليردع العوام عن زيارته وتقديم النذور إليه ، وقد ترجمت الرسالة إلى اللغة التركية .

١١ — تجريد السنان فى الذب عن أبى حنيفة النعمان : رد به على رسالة لأحد غلاة/نال فيها من الإمام أبى حنيفة ، وأتباعه يعدون بالملايين فى العراق وتركيه والأفغان والهند والصين وغيرها ، ومنهم خمسون مليوناً فى الصين وحدها ، ضمنه مطالب فقهية مهمة ، وفرغ منه فى سنة ١٣٠٦ هـ .

١٢ — فتح المنان تتمة منهاج التأسيس رد صلح الإخوان : ذكر فى مقدمته أن كتاب صلح الإخوان الذى ألفه داوود بن سليمان لما كان مشتملا على ما يصادم الشريعة الغراء من الدعاء إلى عبادة غير الله وجواز الالتجاء إلى ما سواه ، وما إلى ذلك من الشبه رد عليه العلامة المحقق الشيخ عبد اللطيف النجدى بكتاب جليل سماه « منهاج التأسيس فى الرد على ابن جرجيس » غير أنه وافاه الأجل قبل أن يتمه، فأتمه الألوسى، وفرغ من تأليفه فى سنة ١٣٠٦ هـ ، وطبع فى الهند سنة ١٣٠٩ هـ بنفقة الشيخ قاسم بن محمد بن ثانى حاكم قطر .

١٣ — غاية الأمانى فى الرد على النبهانى : وهو الشيخ يوسف النبهانى من شيوخ بيروت وقضاتها ، وهذا الكتاب رد على كتابه « شواهد الحق » تناول فيه المسائل المتنازع عليها بين دعاة الإصلاح السلفيين ومعارضيهم القبوريين ، وناضل فيه عن شيخ الإسلام أحمد بن تيمية زعيم الإصلاح الدينى الأكبر نضالا رائعاً، قال العلامة السيد محمد رشيد رضا فى تقريظه فى المنار (١٢/٧٨٥): « وفى هـــذا الكتاب مالا أحصيه من الفوائد العلمية فى التوحيد والحديث والتفسير والفقه والتاريخ والآداب والتصوف وما انفرد به بعض المشاهير فأنكره العلماء عليه كالإنكار على الغزالى وابن عربى الحاتمى وغيرهما . فعلى هذا الكتاب نحيل الذين يكتبون إلينا من الشرق والغرب يسألوننا أن نرد على النبهانى ، وكذا من اغتروا بقوله ونُقوله وظنوا أن قولنا فى الاعتذار عن عدم قراءة كتبه والرد عليها « أنه لا يوثق بعلمه ولا بنقله » هو من قبيل السبّ ، وحاشا لله ما هو إلا ما نعتقده فيه وفى كتبه بعد النظر فى بعضها ورؤية ما فيها من الأحاديث الموضوعة والنقول المكذوبة والاستنباطات الباطلة ممن جعل نفسه بالاستنباط مجتهداً وهو ينكر الاجتهاد ويعترف بأنه ليس أهلا له ... » وقد مر الحديث عن هذا الكتاب فى الكلام على سيرة المؤلف وفى أول الكلام على مؤلفاته ، وهو فى مجلدين كبيرين طبعا فى مطبعة كردستان العلمية بالقاهرة بنفقة الشيخ عبد القادر التلمسانى : الأول فى ٤٥٧ صفحة ، والثانى فى ٣٦٥ صفحة .

١٤ — الآية الكبرى على ضلال النبهانى فى رائيته الصغرى : لما أطلع الشيخ يوسف النبهانى على الكتاب السابق ، سقط فى يده ، وعجز عن نقضه بالبرهان والدليل ، ففزع إلى النظم يفرغ فيه غيظه ونظم قصيد ةرائية ركيكة ذات خمسة فصول هجابها عظماء النهضة الإسلامية الحديثة : موقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغانى ، والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، والعلامة السيد محمد رشيد رضا منشىء المنار وصاحب المؤلفات الإصلاحية المشهورة ، والإمام السيد الألوسى،وأهل نجد.فرد عليه الألوسى بهذا الكتاب، وناقض منظومته طائفة من علماء نجد ودمشق أيضاً . وقد طبعت هذه المناقضات ، ولم يطبع الألوسى كتابه .

١٥ — المنحة الإلهية تلخيص ترجمة التحفة الاثنى عشرية : أصل هذا الكتاب للعلامة الشيخ عبد العزيز الفاروقى باللغة الفارسية ، وترجمته للشيخ غلام محمد أسلى من علماء الهند. رأى السيد الألوسى فيه إطناباً وتكراراً لكثير من المسائل وأسلوباً بعيداً بعض البعد عن الفصاحة والانسجام ، فلخصهوهذب عبارته وأضاف إليه فوائد جزيلة، ثم قدمه إلى السلطان عبدالحميد فى سنة ١٣٠١ ﻫ . وقد طبع الكتاب فى الهند ، وأعيد طبعه حديثاً بالمطبعة السلفية فى القاهرة بعناية الأستاذ محب الدين الخطيب .

١٦ — السيوف المشرقة مختصر الصواعق المحرقة : الأصل للشيخ محمد الشهير بخواجه نصر الله الحسينى الصديق من علماء الهند، كتبه فى سنة ١٣٠٣ﻫ ،

١٧ — صب العذاب : نقض به أرجوزة لمحمد الطباطبائى المتستر باسم أحمد الفاطمى ناقض بها كتاب الأجوبة العراقية عن الأسئلة الإيرانية تأليف أبى الثناء الألوسى ، كتبه فى سنة ١٣٠٤ ﻫ .

١٨ — رجوم الشياطين : أشار إليه فى كتابه صب العذاب ، ولم أره .

١٩ — سعادة الدارين فى شرح حديث الثقلين : أصل هذا الكتاب

للشيخ عبد العزيز الملقب بغلام حليم بن الشاه ولى الله أحمد عبد الرحيم الدهلوى الفاروقى مصنف « حجة الله البالغة » ، باللغة الفارسية ، وقد ترجمه السيد الألوسى إلى اللغة العربية ، وضم إليه فوائد تتعلق بهذا الحديث ، ورتبه على مقدمة ومقصد وخاتمة .

٢ — الكتب التاريخية :

وأما كتبه التاريخية ، فقد احتفل فيها بناحيتين من تاريخ أمته ، وتاريخ وطنه العربى ولا سيما المعاصر الذى قل الاحتفال به ، وندر أن تعرض لمباحث تاريخية مطروقة ومتداولة . وفيما تصدى له من تاريخ أمته ووطنه عرض للمجتمع العربى وقوانينه قبل الإسلام ، لأنه أصل عظيم يرجع إليه فى فهم سر ذلك الانقلاب الإسلامى العجيب الذى أدخل الإنسانية فى طور جديد من الحياة البشرية ، وعرض للسيرة النبوية وللأنساب العربية القحطانية والعدنانية ومآثرها وبطولاتها ليقيم من ذلك الأمثلة العملية التى تأتسى فيها الأجيال العربية الناشئة ، كما عرض لتواريخ بعض الأوطان العربية كنجد مهد العروبة الأصيلة وبغداد موئل الحضارة العربية الإسلامية . وقد سد بهذه الكتب عدة ثغر فى المكتبة العربية الحديثة ، ودات اتجاهاته فيما تناول من هذه المباحث على نزوعه إلى ارتياد الجديد فى الجملة وتجنب المكرورات ، إلا أن يريد الخوض فى شأن مطروق تجريده من عيوبه وأغلاطه وإبرازه فى حقيقته الصحيحة .

وكتبه التاريخة هى :

١ — بلوغ الأرب فى أحوال العرب : ولهذا الكتب تاريخ واسع قدمنا الكلام فيه ، وهو ثلاثة مجلدات . وقد طبع بمطبعة دار السلام ببغداد سنة ١٣١٤ هـ ثم فى القاهرة سنة ١٣٤٢/١٣٤٣ موشحاً بتعليقاتى عليه .

٢ — كتاب عقوبات العرب فى جاهليتها وحدود المعاصى التى يرتكبها بعضهم : وهو دراسة طريفة ومهمة ، نشرته فى جزء ممتاز أصدرته إدارة جريدة العراق لعامها الخامس .

٣ — شرح منظومة عمود النسب فى أنساب العرب : وهذه المنظومة هى للعالم النسابة الشيخ أحمد البدوى المجلسى الشنقيطى البوحمدى(١) ، والشرح من أهم كتب التاريخ والأنساب ، وصفته فى مجلة المجمع العلمى العربى ١٠٥/٣ . وهو قسمان الأول فى أنساب عدنان ونسب النبى ، صلى الله عليه وسلم وأنساب أصحابه العدنانيين ، والثانى فى نسب قحطان وما تفرع منه وقد قدم المؤلف شرح هذا القسم وفرغ منه لست خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٣٦ هـ ونسخته بخط محمد سعيد بن السيد مال الله التكريتى فى مكتبة مديرية الآثار العامة ببغداد .

ثم شرح الأول منه وفرغ منه لثمان خلون من شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٠ هـ ونسخته عندى بخطى نقلتها من مسوّدة المؤلف .

٤ — الدر اليتيم فى شمائل ذى الخلق العظيم : لم يتمه .

٥ — كتاب أخبار بغداد وما جاورها من البلاد . قال فى مقدمته بعد أن ذكر طائفة من المؤلفات القديمة فى تاريخ بغداد : « وكل من هذه الكتب أعز من بيض الأنُوق ، وأندر من الأبلق العقوق . وغالب أهل هذا الوطن بمعزل عن معرفة أخبار وطنهم ، والوقوف على ما جرى على بلدهم ومسكنهم ، فأحببت أن أتطفل على أولئك الأجلة الأكابر ، وإن كنت لست ممن يعد إذا عُقدت على أولئك الخناصر ، فى ذكر ما جرى على هذا القطر منذ دخوله فى حوزة الإسلام ، وبيان السبب الذى استوجب اختطاط مدينة السلام ، وتحديد صقع العراق ، وتعريف بعض بلاده الشهيرة فى الآفاق ، وما كان فيه من القصور والدور ، والمبانى التى قاومت صدمات الدهور . ثم انثنى إلى بيان ما أصبحت عليه اليوم بغداد ، وما اشتملت عليه فى عصرنا من الأدباء الأمجاد والأفاضل والزهاد والأكابر المشتهرين فى البلاد . ثم أتبع ذلك ببيان ما فى بغداد من المساجد والمدارس والمعابد ... » .

---

(١) ترجمته فى « الوسيط فى أدباء شنقيط » ص ٣٤٧ .

ما القسم الأول من هذا الكتاب فلا يزال فى المسودة ، ونسخه عديدة منتشرة ، منها نسخة بخط السيد إبراهيم بن ثابت الألوسى فى خزانة كتب آل باش أعيان البصرة ، وعنها صوّرتُ نسخة للمجمع العلمى العراقى فى سنة ١٩٥٣ م .

وأما القسم الثانى فقد سماه « المسك الأذفر فى تراجم علماء القرن الثالث عشر » ، نشرت قطعة منه ببغداد ، وباقيه وهو يزيد على المنشور لا يزال مخطوطاً ، أعرف منه نسختين أولاهما بخط المؤلف ، والأخرى نقلتها بخطى من نسخته .

وأما القسم الثالث ، فهو كتاب مساجد بغداد وآثارها . توليت تهذيبه وتبويبه وكتابة مقدمة له وأضفت إليه مافات المؤلف إيراده من مساجد بغداد وطبعه الشيخ أمين عالى آل باش أعيان البصرى وزير الأوقاف على نفقته الخاصة بمطبعة دار السلام ببغداد سنة ١٣٤٦ هـ .

٦ — تاريخ نجد : ضمنه تاريخها المعاصر وبحوثاً فى مقاطعة الأحساء التابعة لها وأخرى فى عادات أهل نجد ومعايشهم وشؤونهم الاجتماعية ومعتقداتهم ، ونبذاً عن أمراء نجد ورسم حكومتهم وصوراً من رسائل الأمراء آل سعود فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما عرض فيه لسيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عالم نجد وباعث نهضتها الدينية والسياسية فى القرن الثانى عشر الهجرى . وقد كانت هذه البحوث أشتاتا متفرقة ، تركها المؤلف فى المسودة ولم يجمعها ، فلممتُ أطرافها فى هذا الكتاب ، وطبعتها لى المكتبة العربية البغدادية بالمطبعة السلفية فى القاهرة سنة هـ ثم أعادت طبعه فى سنة هـ وألحقت به تعليقات عليه كتبها العلامة الشيخ سليمان بن سحمان من علماء نجد وأرسلها إلىّ لأضيفها إلى الكتاب عند إعادة طبعه .

٧ – أخبار الوالد : جزء لطيف ترجم فيه أباه السيد عبد الله بهاء الدين الألوسى وجمع فيه طائفة من منشآته .

الدخيلة

(٣) كتبه فى العلوم الدخلية والمسائل العامة :

الدخيلة وألف فى العلوم الدخلية وفى المسائل العامة كتباً ورسائل ، بعضها الدخيلة مترجم من الفارسية ، وبعضها نقد لبعض هذه العلوم الداخلية ، وبعضها شروح ومتون للطلاب .

وهذه الكتب هى :

١ – ترجمة رسالة فى الهيأة باللغة الفارسية لعلى بن محمد القوشجى السمرقندى شارح زيج ألُغْ بك ومن كبار المشتغلين بالهيأة فى الإسلام .

٢ – شرح الرسالة السعدية فى استخراج العبارات القياسية : كتبه فى سنة ١٣٠٠ هـ .

٣ – كتاب الأجوبة المرضية عن الأسئلة المنطقية : نقد فيه علم المنطق مبيناً قلة جدواه فى ناحيته التطبيقية .

٤ – بنان البيان : متن صغير فى علم البيان .

٥ – المفروض من علم العروض : استخرجه من لسان العرب إبان استقرائه له سنة ١٣٢٦ هـ .

٦ – شرح خطبة كتاب المطول فى البلاغة .

٧ – إزالة الظما بما ورد فى الما .

(٤) الكتب الادبية :

وهى نقود وشروح ومنشآت ووثائق أدبية ومسائل اجتماعية ، وهى :

١ – القول الظريف فى تزييف دعوى ناصيف : وهو نقد لمقامات مجمع البحرين من وضع الشيخ ناصيف اليازجى اللبنانى الشاعر الأديب

المشهور ، وازن فيه بينها وبين مقامات الحريرى ، وتتبع سرقاته اللفظية والمعنوية من الحريرى وغيره . تبعثر إبّانَ نفيه إلى الأناطول وفقد أكثره ، وعندى قطعة من أوله بخط المؤلف .

٢ — الأسرار الإلهية شرح القصيدة الرفاعية : قدمنا الكلام عليه فى أثناء سيرته .

٣ — شرح القصيدة الأحمدية : وهى من نظم صاحبه أحمد بك الشاوى الحميرى فى مدحه ، أجازه عليها بشرحها ، وهو شرح أدبى ممتع .

٤ — بدائع الإنشاء : جزءان ، اشتمل الأول على رسائل أبيه فى مئة صفحة والثانى ضمنه طائفة كبيرة من مكاتبات الأمر والعلماء والأدباء له ، وترجم فيه لبعضهم أحيانا ، فى ٢٤٠ صفحة .

٥ — رياض الناظرين فى مراسلات المعاصرين : فى ٥٦٠ صفحة ، وهو كالكتاب السابق ، وكلاهما تضمن وثائق مهمة ورسائل فى أغراض متنوعة علمية وأدبية وشخصية من أخبار المؤلف ومعاصريه .

٦ — أمثال العوام فى مدينة السلام : جمع فيه ما يدور على ألسنة عوام بغداد من الأمثال ، وضع اللفظ العامى كما يستعملونه وربما غيره أحياناً إلى ما يقاربه فى التعبير تحاشياً للالفاظ العجمية وتجنباً لوصمة بعض الحروف التى تأباها مخارج الحروف العربية . مرتب على حروف الهجاء .

٧ — اللؤلؤ المنثور وحلى العصور : ضمنه رسائل أبيه وجده ، فى ١٧٠ صفحة .

٨ — لُعَب العرب : رسالة لطيفة جمعت لعب العرب ، تقصاها إبان قراءته لسان العرب فى سنة ١٣٢٦ ﻫ ، كما تقصى مصطلحات العروض وغيرها .

٩ — المسفر عن الميسر : ٤٠ صفحة .

١٠ — رسالة السواك : بحث موجز فى العيدان التى كانت تستاك بها العرب ، نشرتها فى مجلة الحرية ١ / ٦٧ .

وبعض هذه الكتب أشبه بالدراسات اللغوية ، أوهو جامع بين الدراسات اللغوية والاجتماعية كالرسائل الثلاث الأخيرة .

٥ — الكتب اللغوية :

وتناول فى كتبه اللغوية مباحث مهمة وطريفة ، وأكثر دراساته فيها من غير المألوف عند أهل زمانه . وسنخص فى المحاضرات الآتية جانباً من هذه الدراسات بنظرات تفصيلية توضح منهجه اللغوى وأصول بحوثه ودراساته اللغوية .

وهذه الكتب هى :

١ — كتاب ما اشتملت عليه حروف المعجم من الدقائق والحقائق والحكم: فى الصوتيات . بحث فيه علاقة الصوت بالحروف والمخارج اللسانية ، ومسائل تركيب الحروف ، والإعجام ، وأصول حروف المعجم ، وفروع الحروف ، ومخارج الحروف ، وأجناسها من مجهورة ومهموسة وشديدة وراخية ومطبقة ومنفتحة ومستعلية ومنخفضة ، وأحكام ما كان على ثلاثة أحرف من حروف المعجم ، ومذاهب علماء الإسلام من الحنابلة والأشاعرة فى حروف المعجم وقدمها ، وهل هى عرض ومن أى نوع من أنواع الأعراض ، والنقط ، والشكل ، وترتيب الحروف ، وصور الحروف العربية وأشكالها ، والمناسبة بين الألفاظ والمعانى فى اللغة العربية . وسعة اللغة العربية ، وغير ذلك من من المباحث الطريفة النافعة . وهو (مخطوط) فى ١١٥ صفحة .

٢ — الجواب عما استبهم من الأسئلة المتعلقة بحروف المعجم : وهو جواب عن أسئلة سبعة وجهها السيوطى إلى علماء زمانه ، ولم يجب عنها أحد . ونص هذه الأسئلة فى كلام السيوطى : « إعلم أنى كنت قديماً حررت سبعة

أسئلة متعلقة بحروف المعجم ، ولم يجب عنها أحد إلى الآن . ونصها : من ادعى أنه فى العلم والفهم مقدم ، فليجب عما استبهم من الأسئلة المتعلقة بحروف المعجم ومن عجز عن تقرير ألف باتاثا ، فليستضعف نفسه عن أن يقرر أبحاثاً . وهى هذه :

السؤال الأول : ما هذه الأسماء — ألف باتاثا إلى آخرها ؟ وما سرها ؟ وهل هى أسماء أجناس أو أسماء أعلام ؟ فإن كان الأول ، فمن أى نوع الأجناس هى ؟ وإن كان الثانى ، فهل هى منقولة أو مرتجلة ؟ فإن كان الأول ، فمم نقلت ؟ أمن حروف أو أسماء أو أفعال ؟ أعيان أم مصادر أم صفات ؟ وإن كانت جنسية فهل هى من أعلام الأعيان أو المعانى ؟ .

الثانى : من وضع هذه الحروف ؟ وفى أى زمن وضعت ؟ وما مستند واضعها هل هو العقل أو النقل ؟

الثالث : هل هى مختصة باللغة العربية ، أو عامة فى جميع اللغات ؟

الرابع : الألف والهمزة هل هما مترادفان أو مفترقان ؟ وعلى الثانى فما الفرق ؟ وأيهما الأصل ؟

الخامس : لِمَ أجمع علماء اللغة والعدد وغيرهم من المتكلمين على المفردات — على الابتداء بحرف الهمزة ؟ وهل هو أمر اتفاقى أو تحكم ؟

السادس : كلمات أبجد ، هوز ، إلى آخرهن — هل هى مهملة أو مستعملة ؟ وما عنى بها ؟ وما أصلها ؟ وكيف نقلت إلى المراد بها ؟ وما ضبط ألفاظها ؟

السابع : ما حكمها فى الابتداء والوقف والمنع من الصرف والتذكير والتأنيث والإعراب والبناء واللفظ والرسم وعند التسمية بها ؟

فهذه سبعة أسئلة . من أجاب عنها فهو من الرجال ، وإلا فلا مزية له على الأطفال » .

قال السيد الألوسى :

« وقد أجاب عنها بعض الأفاضل بأول النظر ، ولم يراع ما اشتهر: السؤال أنثى والجواب ذكر » .

وتصدى لتأليف هذا الكتاب الطريف المفيد . وهو مخطوط يقع فى ٤٠ صفحة .

٣ — الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر: تتبع فيه ضرورات الشعر التى سمعت عن العرب ، واستوفى الكلام عليها تمثيلا وتبييناً . رتبه على مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة ، وضمن المقدمة خمس عشرة مسألة تتوقف عليها معرفة هذا الفن ، مثل تعريف الضرورة وتحديد خلاف العلماء فيه ، وأن الضرورات سماعية لا يسوغ للمولد إحداث شىء منها ، وأن الضرورة لا بد لها من وجه تخرج عليه ، وما جاز للضرورة يتقدر بقدرها ، وما لا يؤدى إلى الضرورة أولى مما يؤدى إليه ، وتقسيم الضرورة إلى حسنة وقبيحة ، والحمل على أحسن الأقبحين ، وكون الضرورات لا تنحصر بعدد معين كما حصرها أبو سعيد القرشى فى أرجوزته « اللسان الشاكر فى ضرورة الشاعر » فى مئة ضرورة ، والفرق بين الضرورة والاطراد والشذوذ ، وبيان النادر والغريب ونحو ذلك ، وأغلاط العرب هل هى من الضرائر أولا ؟

وأما الأقسام الثلاثة ، فهى ضرائر الحذف ، وضرائر التغيير ، وضرائر الزيادة ، وأما الخاتمة فضمنها كلاماً فى أمور تقع فى فصيح الكلام وليست من الضرائر .

وقد طبع بالمطبعة السلفية فى القاهرة موشى بتعليقاتى عليه . سنة ١٣٤٠ هـ

٤ — مختصر الضرائر (مخطوط) .

٥ — كتاب تصريف الأفعال (مخطوط) .

٦ — الجوهر الثمين فى بيان حقيقة التضمين : (مخطوط) فى ٥٠ صفحة.

٧ — كتاب النحت وبيان حقيقته وقواعده (مخطوط) .

٨ — اتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد : من أوائل مؤلفاته ، كتبه فى سنة ١٣٠١ هـ (مخطوط) .

٩ — شرح أرجوزة تأكيد الألوان : ذكر فيه اختلاف الناس فى حقيقة اللون ، ومؤكدات الألوان وما ورد فى كتب اللغة من الأسماء الموضوعة للألوان المختلفة . نشره فى مجلة المجمع العلمى العربى (٦٧/١) بعد انتخابه عضواً مراسلا فيه .

١٠ — شرح منظومة العطار : فى فن الوضع من فنون اللغة العربية (مخطوط) .

١١ — فتاوى لغوية ونحوية : عندى طائفة منها ، وهى مهمة .

عنايته باحياء آثار السلف

إلى جانب هذا المجهود العظيم الذى أنفقه الألوسى فى التأليف ، يقف مجهود ضخم آخر له أنفقه فى البحث عن ذخائر الفكر عند العرب والمسلمين وفى الاجتهاد فى إحياء ماتناله يده من روائعه . وهو مجهود لو ادّخره لنفسه، وأنفقه فى التأليف ، لبلغت كتبه المئات .

وسيرة الألوسى فى هذا الشأن سيرة عجيبة حقاً من حيث الحفاظ على التراث العربى الإسلامى ، ومن حيث التوفيق فى اصطفاء الكتب التى تمثل العلم الصحيح والتى تمثل الفكر الإسلامى الثائر المتحرر من التقليد . ولعل من الخير أن نلم ببعض جوانبها أو أظهر هذه الجوانب التى خبرناها خبرة شخصية ، وقد كان من كلفه بهذا التراث أنه كان لا يكاد يقع على الكتاب المخطوط النادر ويطمئن إلى فائدته حتى يعكف على نسخه بيده من فوره فى سرعة بالغة وإتقان ، وربما كان يكلف أصحابه نسخه لأنفسهم أيضا ليفيدوا منه علما أو أدبا أو فكراً أو جدلا وحجاجا ، فإذا فرغوا منه حفل بسماعه ومقابلته وتصحيحه ، وربما علق عليه .

وكان يسمع بالكتاب الجيد يروقه موضوعه أو فكره ، أينما كان ، فيجهد جهده فى طلبه ، ولا يبالى تكاليفه المادية بالغة ما بلغت مع ضيق ذات يده. ومن يقف على مراسلاته لعلماء الأمصار فى ذلك يجد غاية العجب .

وكان إذا حصل على الكتاب الجيد ، عكف على درسه وتحقيقه ، وطمح إلى نشره ، كارهاحبسه فى خزائن الكتب أو عنده ، وقصر فوائده على نفسه أو على أفراد معدودين ، وجادبه على من يحب نشره سخية به نفسه ، لا يهدأ له بال إلا أن يراه متداولا فى الأيدى ينتفع به الناس . فكان تارة يشجع الأغنياء من أصحابه فى العراق وفى غيره على طبعه إذا كان من الكتب الكبار

التى يتعذر على غير الأغنياء النهوض بتكاليفها ، وتارة يعمد إلى نشره فى مجلة واسعة الانتشار والذيوع إذا كان الكتاب من الكتب والرسائل الصغار ، وإذا عزّ الناشر ، عمد إلى إكثار أعداده حفظاً له من التلف والضياع ، وأهداه إلى خزائن الكتب المشهورة فى الأمصار العربية ليكون فى متناول الباحثين والناشرين .

وشواهد هذا وذاك كثيرة لدىَّ ، أذكر أولَ ما أذكر منها قصة كتاب نقض أساس التقديس من تأليف تقى الدين أحمد بن تيمية الحرانى الدمشقى الإمام المجدد المشهور ، وهو كتاب عظيم حقاً ينقض به ابن تيمية كتاب أساس التقديس لفخر الدين الرازى العالم الكلامى المشهور . وقد تسامع الألوسى بوجود بعض أجزائه فى دمشق ونجد ، فجدّ فى استكتابها حتى ظفر بها . ووافق وصولها إليه طلبى أخذ العلم عنه ، فجعل شرطه على نسخ هذا الكتاب وقراءته عليه ، لأفيد منه الأنظار الصحيحة فى العلم وأصول البحث وطرائق الجدل والاحتجاج ، وكان ابن تيمية أعظم فرسان هذا الميدان فى الإسلام .

وحمل إليه أحد تلاميذه القدماء ذات يوم مخطوطاً فى « مثالب العرب » قديم العهد ، غُفـلا من اسم مؤلفه . . أهدى إلى أمين الريحانى عند زيارته لبعض المدن العراقية ، وكانت كتب المثالب قديمة كثيرة جداً حفل الشعوبيون بالتأليف فيها نيلا من العرب . فلما أجال نظره فيه ، غضب أشدّ غضبة رأيتها منه ، وساءه أن يهدى مثل هذا الكتاب إلى الريحانى ، وخشى أن ينتهى إلى شعوبى من هؤلاء الشعوبيين المعاصرين الذين نشأهم « الاستعمار الأوروبى » ليحارب بهم اليقظة العربية ، فأخذه ، وشقه شقين احتفظ بأحدهما ودفع إلىَّ الآخر ، وقام من فوره فقام من فى المجلس لقيامه ، وهو يقول لى : هذا كتاب خبيث يجب عليك نقضه . ولا أريد أن أراك فى صبيحة الغد إلا قد أنجزت نسخ قسطك منه ، والتقينا فى صبحة اليوم التالى ولدينا نسخة جديدة من الكتاب ، يملك كل منا نصفها ، ثم أكمل نسخته وأكملت نسختى ، ورد النسخة القديمة إلى صاحبها

لم تبت عندنا إلا ليلة واحدة ، وعنيت بوضع ردى عليه من بعد ، حتى إذا نشر الأصل كان الرد عليه حاضراً .

وكنت أمس فى زيارة معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، فأهدى إلى مديره صديق الدكتور صلاح الدين المنجد نسخة من فهرست الكتب التى صورها المعهد ، فما أجلت نظرى فيه حتى وجدت فيه كلاماً على كتاب نادر فى تاريخ اليمن وجدت نسخته فى المكتبة الظاهرية فى دمشق بخط الألوسى . ولاأراه إلا قد أهداه إلى هذه المكتبة ليكون فى متناول الناشرين .

وأذكر من إهدائه نفائس الكتب إلى خزائن الكتب المشهورة اهداء كتاب الخيل لأبى عبيدة ، وقد علم بوجوده فى المدينة المنورة ، فكلف من نسخه له . فلما حصل فى يديه ، وراقه ما فيه من علم ولغة ، أحب إكثار نسخه فكتب عنه نسخة بيده وأهداها إلى خزانة كتب أحمد تيمور باشا فى القاهرة وكتبت بإشارته نسخة قرأتها عليه ثم أهديتها إلى خزانة كتب أحمد زكى باشا بالقاهرة أيضاً .

وسأله أحمد تيمور باشا عن ديوان البوصيرى، وكانت نسخته فى خزانة كتب العلامة أبى البركات نعمان خير الدين الألوسى ببغداد ، فعمد إلى نسخها بيده وكان لى شرف مساعدته فيه وخطى يومئذ كخطه يتعذر التميز بينهما (١)، وجعل جوابه مقرونا بهذه النسخة . وقد كنت قبل أيام أطوف فى مكتبات القاهرة باحثا عن المطبوعات التى لم تصل إلى العراق ، فظفرت بهذا الديوان فى جملة هذه المطبوعات وقد اعتمد ناشره على نسختين إحداهما هذه النسخة وهى أفضل من أختها صحة وتحقيقا .

ولو ذهبت أتقصى سيرة الألوسى فى هـــذا الباب ، وأورد الشواهد

(١) أنظر مجله المنار م ٢٥ .

على حفاظه على التراث العلمى العربى ، لأمللت ، وربما كان الذى أجهله من ذلك أكثر من الذى أعرفه .

ومن الحق أن أشير إلى أن جهد الألوسى فى هذه السيرة العجيبة كان موزعا على جملة هذا التراث . لكن اعظم جهده كان مصروفا إلى كتب الإصلاح الدينى ، ولا سيما كتب الإمامين ابن تيمية وابن القيم ،فإن تقصيه لها فى خزائن الكتب بالعراق والشام ومصر والحجاز ونجد والهند ، واستكتابه إياها أو نسخه لها بيده وجدّه فى تحقيقها وسعيه فى طبعها ، هو فوق الوصف وفوق أن يتسع له صدر هذه المحاضرات ، فإليه يرجع الفضل فى إحياء كثير منها فى صدر هذا العصر ، والمتتبعون يشهدون له بهذا الفضل ولا ينسونه له ، ومن هذا ما كتبه الأستاذ محب الدين الخطيب فى مقدمة الطبعة الثالثة لكتاب « جواب أهل العلم والإيمان » من تأليف الإمام ابن تيمية ، وهو قوله : « ويرجع الفضل فى تعريف أهل هذا العصر بهذا الكتاب النافع لعلاّمة العراق السيد محمود شكرى الألوسى رحمه الله ، فقد عثر على نسخة مخطوطة منه فى بغداد ، فنقلها بخطه ، وأرسلها إلى القاهرة سنة ١٣٢٢ (أى قبل بضع وخمسين سنة) ، فطبعت بمطبعة التقدم ، ثم أعيد طبعها سنة ١٣٢٥ بالمطبعة الخيرية . ولما نفدت نسخها فى عشرات السنين ، وفق الله لإحيائها وتيسير نشرها الفاضل الصالح الموفق للخير المدير العام لوزارة الدفاع والطيران السعودى . »

أظن أننى — بهذه الإشارات — قد بلغت بعض ما أريد الإبانة عنه من خصائص الألوسى فى هذا الشأن . أما الكتب القيمة التى حققها ونشرها ، فأذكر ما عرفته منها على سبيل الاتفاق لا التتبع والاستقراء ، إذ كان هذا يتطلب مجهوداً ووقتا لا أملكهما ، ومن هذه الكتب ما أثبت اسمه فيه ، ومنها ما أغفل اسمه فيه لسبب أجهله ولكننى وجدت شواهد سعيه فى استكتابه أو نسخه وجده فى نشره فى جملة ما وقفت عليه من مراسلاته لعلماء الأمصار فى هذا الشأن .

وهى هذه :

١ — منهاج السنة النبوية : للإمام تقى الدين أحمد بن تيمية ، ٤ مجلدات طبع بالمطبعة الأميرية الكبرى ببولاق / القاهرة — سنة ١٣٢١/١٣٢٢ . أغفل اسم الألوسى فيه ، ولدىّ بينات اجتهاده فى نسخه ونشره .

٢ — بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول : للإمام ابن تيمية أيضا ، طبع فى هامش الكتاب السابق، وهو بعض أجزاء هذا الكتاب العجيب .

٣ — تفسير سورة الإخلاص : له أيضا ، طبع سنة ١٣٢٣ ﻫ بالمطبعة الحسينية القاهرة على نسخة قرئت على الألوسى كما نص على ذلك فى أول الكتاب

٤ — جواب أهل العلم والإيمان : له أيضا وقد تقدم الكلام عليه قريبا .

٥ — مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة : للإمام ابن القيم مجلدان ، طبع بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٢٣ ﻫ ، وكتب فى أوله : صحح هذا الأصل على نسختين ، أولاهما وردت لنا من صاحب الفضيلة علامة العراق على الإطلاق آلوسى زاده السيد محمود شكرى الألوسى حفظه الله ، وعليها علامة المقابلة بخطه . . . » .

٦ — شفاء العليل فى القضاء والقدر والحكمة والتعليل : للامام ابن القيم أيضا ، طبع بالمطبعة الحسينية المصرى سنة ١٣٢٣ ﻫ ، وجاء فى آخره بقلم مصححه بدر الدين النعسانى الحلبى . « وبعد فقد تم ولله الحمد طبع كتاب شفاء العليل .. وذلك بعد عناء تصحيح النصف الأول على نسخة وصلتنا من صاحب الفضيلة علامة العراق على الاطلاق آلوسى زاده محمود شكرى أفندى حفظه الله . . . » .

٧ — تأويل مختلف الحديث ، فى الرد على أعداء أهل الحديث والجمع بين الأخبار التى ادعوا عليها التناقض والاختلاف والجواب عما أوردوه

من الشبه على بعض الأخبار المشكلة بادىء الرأى . للإمام ابن قتيبة الدينورى طبع على نفقة محمود الشابندر البغدادى الذى تقدمت الاشارة إليه فى المحاضرة الثانية ، سنة ١٣٢٣ ، بمطبعة كردستان العلمية بالقاهرة ، وكتب صاحب المطبعة فى أول الكتاب . « طبع وصحح على ثلاث نسخ . النسخة الواسطية المصححة بمعرفة أستاذى المفضال السيد محمود شكرى الألوسى ...... » .

٨ — ميزان المقادير فى تبيان التقادير . للشيخ رضى الدين محمد القزوينى وهو أحد أفاضل القرن الحادى عشر من أعيان قزوين ، نشره فى مجلة المقتبس للعلامة محمد كرد على م ٥ ص ٦٨٦ — ٦٩٨ و ٧٥٠ — ٧٦٥ (سنة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م) .

٩ — نخب الذخائر فى أحوال الجواهر . لمحمد بن ابراهيم بن ساعد السنجارى المصرى المعروف بابن الأكفانى ، من أهل القرن الثامن ، توفى سنة ٧٩٤ هـ . نشره فى مجلة المقتبس م ٤ ج ٧ ص ٣٧٨ — ٣٨٨ (رجب سنة ١٣٢٧) ، وعلق عليه عيسى اسكندر المعلوف فى ص ٥٧٢ — ٥٧٥ مصححا بعض ألفاظه على نسخة قديمة عنده .

دراساته اللغوية

ونقف من علوم الألوسى عند دراساته اللغوية .

أحب الألوسى اللغة العربية من حبه للعرب ، وهو منهم فى الصميم ، ومن ألفته فى بيته ومرباه لعلومها وللخصائص العربية الراقية والنماذج المثالية الحية التى تنمى فيه هذا الحب وتذكى جذوته وتغريه بكل ما هو عربى إغراء شديداً لا يدفعه دافع .

وقد كان مجد بيته الذى أَلِفَ فيه كل ذلك قائما — كما رأينا — على الدين ، واللغة من أركان هذا الدين ، بل هى مظهره ، والعناية بها عناية به . ثم هى إلى ذلك عمود القومية ، ككل لغة من لغات الأقوام جميعا ، وحياة الأقوام بحياة لغاتها ، لا ريب فى ذلك .

وقد كان العرب ولا يزالون من أكثر الناس معرفة بهذا المعنى ، وأشدهم حرصا على العمل به . وهم من أجل هذه القومية وهذا الدين دونوا اللغة ، واخترعوا علومها من نحو وتصريف واشتقاق وبلاغة وبيان وعروض وأدب ونقد ، ومزجوا بين الدين واللغة مزجا ، فعدوا علم اللغة من أركان هذا الدين ، وإهمالَ هذا الركن إهمالا له ، ووصوا أن « لا يقرىء القرآنَ إلا عالم باللغة » كما أُثِرَ عن عمر بن الخطاب — رضوان الله عليه — ، لأن القرآن عربى ، ولا تفهم مقاصده إلا باللغة العربية .

وحدا ذلك الحس اللغوى المرهف بجميع علماء المسلمين والعرب فى كل العصور على دراسة الفصحى ، والتفقه فيها ، وعلى بذل المجهود العظيم لنشرها وإذاعتها حيث بلغ الإسلام من هذه الأرض . وبذلك حفظت الفصحى من الاضمحلال إبان العصور الطوال التى استعجمت فيها الدولة ، ولم تقو العجمة

استعجمت

التي سال سيلها مع المغول من الشرق ومع الصليبيين من الغرب أن تنال منها منالا .

هذا المعنى كله تمثله الألوسي كما تمثله علماء العرب والمسلمين جميعاً ممن عاشوا قبل الألوسي في العصور الأوَل أو عاصروه أو جاؤوا بعده ، على تفاوت بينهم في إدراكه ، وكان من عمق إدراكه لشأنه في حياة العرب وحياة المسلمين أيضاً من غير شك أن أصبحت اللغة العربية جزءاً من فكره ومن حياته ومن جهاده . فهو يقول في بعض ما يقول في هذا الشأن : « إن فنون الأدب ، وعلوم لسان العرب ، هي من أشرف ما يجب أن يصرف لاقتنائها فرص الزمان ، ولا يتقاعد عن تحصيلها إنسان » ، ويقول : « والذي أيقظ عين العزم ، وشدّ نطاق القصد والحزم ، ما انطوى عليه القلب من محبة العرب ، وأنّ خدمة لغتهم من أجلّ القُرَب » .

بدأ هذا عنده ميلا من الميول أيام صباه ككل شيء يبدأ عند النَّشء الصغار ؛ وظهورُ الميل إلى شيء ما في كل أمر هو بداية في مراحل العشق إذا صادف ما ينميه ويغذيه ويقويه ويذكيه .

ثم قدر لهذا الميل أن ينمي وأن يقوى ويصبح عاطفة قوية هي الحب الذي لا يدفعه دافع ، لأنه صادف منه ألمعية وقادة تتصور الغايات من المطالع وكأنها تراها رأى العين ، كما صادف تعهداً ممتازاً جاءه من أبيه ومن أعمامه وهم ورثة أنبغ عالم من علماء العرب والمسلمين في القرن الثالث عشر الهجري ، أوتي الغاية في الجمع بين فقه الشريعة وفقه اللغة وفاق في الأدب وبلاغة اللسان .

ثم قُدر لهذا الحب النامي عنده أن يحيله طولُ التدريس ، والاستقلالُ بالبحث والتنقير والاستيعاب ، وكثرة التأمل إلى عشق مطلق ، والعشق المطلق معناه الفناء في المحبوب ، وهو يتحقق في القيام على خدمته والاستجابة له ، وفي الذود عنه والإخلاص له ، وفي الدأب على تمجيده وإعلاء شأنه والكشف عن محاسنه ومزاياه .

ومن بينات هذا ما كان من تقصّيه جهدَ استطاعته ، وإلحاحه فى هذا التقصى لما ألف فيها وفى علومها المتعددة من كتب ، وعكوفه على ما يظفر به من هذه الكتب يتملى بدائعها وروائعها ، ويتفقه فى أسرارها ، ويتعمق فلسفتها ، وصبره ، واستشعاره اللذةَ كلَّ اللذة فى هذا الصبر على قراءة أعظم مطوّلات المعجمات مرة بعد مرّة ، كـ (اللسان) الذى قرأه ثلاث مرات من أوله إلى آخره بالترتيب قراءة تدبر وتأمل وإمعان نظر ، لتتمثل فى ذهنه هيآت المفردات ، ويتعمق حسه اللغوى ، ولعله من أيسر ما قرأ واستوعب فى عمره المديد .

ومن بيناته كذلك دؤوبه على تدريسها ، وتفقيه الناس بها وتخريج الطلاب الذين يخلفونه على خدمتها . . . فى مدى خمسين عاما وزيادة ، فى طرفى النهار وزلفا من الليل ، لم يدركه فيها وناء ولا ملل . وقد كان أثره فى تنشئة طلابه على الحفاظ على اللغة العربية يناصى أثره فى بحوثه ، بل يزيد عليه ، فإنه أنفق فى هذا من الوقت ومن المجهود أضعاف ما أنفقه فى البحث والتأليف .

كان يجلس طوال هذا الزمن المديد للدرس والتدريس من فراغه من صلاة الصبح إلى أن يهتف أذينُ الظهر بالدعوة إلى الصلاة ، ومن العصر إلى غسق الليل ، وهو مسرور بذلك منشرح الصدر له ، يشعر بالمتعة كلما تعب ، لأنه يخدم أحب شىء إلى نفسه .

وكان من شدة هذا العشق عنده يتهلل محياه بشراً حين يطلع تلاميذه على سر من أسرار العربية ، أو يفقههم مسألة من مسائلها الحيوية التى تكشف عن طاقاتها وعن قدرتها على مسايرة الحياة المتطورة وعلى إمداد الحضارة بما تحتاجه من ألفاظ لامتناهية ، وحين يحس فهمهم لهذه الأسرار والمسائل ، وتمثلهم لها ، وأنها أصبحت جزءاً من أفكارهم وحيواتهم ، يتصورونها ، ويحيون فيها ، ويستطيعون أن يعملوا بها من أجلها .

وهل هذا إلا أثر العشق الذى غلبه ، والذى جعله لا يكلف بشىء كلفه بهذه اللغة وما تمثله من دين وحضارة ، ولا ينظر إذا نظر إلا إليها ، مع علمه وتذوقه بلغتين من لغات الشرق ، هما الفارسية والتركية ، وكان لسان حاله يقول مع ذى الرُّمَّة :

وإنى متى أشرف على الجانب الذى   به أنتِ من بين الجوانب ناظرُ

وهذا هو ما كان يدفع الألوسى إلى العمل المستمر بقوة ، وإلى الإنتاج اللغوى القيم وتنويعه .

إنه العشق ، وما العشق إلا قلق دائم يثير فى نفس المحب أشواقه إلى المحبوب ، ويجدد نزوعه إليه ، ويكلفه من أجل التقرب إليه ما يطيق وما لا يطيق ، ليبلغ ما تطمئن به نفسه من الرضى والوصول .

وأحسب أن الألوسى قد وصل إلى ما أراد . . ولكنه هل رضى ؟ أستطيع أن أقول « لا » ، لأن خدمة المحبوب ليس لها حدود يقف عندها المحبون الصادقون .

* * *

ومن ينظر إلى إنتاج الألوسى فى مسائل اللغة العربية ، وفقهه واختياره فيه ، يدرك أنه كانت تسيره وتهيمن عليه فيما يؤلف ويختار من موضوعات ألمعية وقادة ، قد تهون بجانبها سعة اطلاعه ، وفضل معرفته ، وتقصيه لآثار السلف ، ووقوفه التام على آراء اللغويين والنحاة وعلى مفردات اللغة من فصيح ونادر وشاذ ومعرب ودخيل ، أو هى كلها تكافأت عنده فى القوة ، وتمازجت فى نفسه فظهرت فى المظهر الذى امتاز به علمه اللغوى النضيج المثمر .

وكان من خصائص ألمعيته :

(ا) أنها رسمت له الغاية التى يستهدفها وينتحيها دائما ، وتقتضيه ألا يحيد

عنها ، وألا يمر بها وتمر به من غير تعارف ، كما نرى عند الكثيرين .

ومن هنا تحددت أهدافه فى إنتاجه ، وسلمت دراساته من التهافت والفضول، إن لم نقل امتازت بما امتازت به من وضـــوح المقاصد وتعين الغاية مع التحقيق والاجتهاد .

(ب) وأنها جنبته التأليف فى الموضوعات المكرورة المعادة من النوع الذى أتخم ولم يسمن من جوع ، وأغنى عن إعادة كتابته ما تركه الأوائل للأواخر وزخرت به الخزائن الخاصة والعامة .

ثم تهدت به إلى مباحث لغوية طريفة مفيدة للحياة الحاضرة ، وبالدارسين مسيس الحاجة إليها ، فلم أطرافها ، ونسقها ، وسلط عليها أضواء ألمعيته ، فوضح بها مقاصدها وحررها ، وقدمها إلى الطالبين ثمراً ناضجاً مستمرأ له لون جميل ومذاق حلو وفيه غذاء .

(ح) وأنها لفتت ذهنه إلى العناصر الحية فى اللغة العربية التى تكشف عن خاصياتها ومرونتها ، وتمكن من الإفادة منها فى تطويعها للتعبير السهل الدقيق عن مطالب العلوم والحضارة والحياة ، وهى مستفيضة ومتجددة ونامية ، فلا بد من أن تكون اللغة كذلك مستفيضة ومتجددة ونامية ، لكن فى إطارها العلمى الفنى الأصيل ، لتمازج الحياة وتسير معها فى مضمار واحد ، كما سارت معها فى تمازج وتوافق تام فى عصور الازدهار .

وغافل كل الغافل ، وإن كان من أقوى الناس ذكاء ، من يظن أن « التمدن عند العرب بنى على اللغة ، واللغات عند الافرنج بنيت فى الغالب على التمدن ، فكانت ألفاظهم غالباً تدل على القديم من هذه الأشياء وعلى الحديث الذى غيّر شكله التمدن » . فإن التفرقة فى هذا باطلة عقلا ، كذلك ماضى اللغة العربية مع حضارة العرب والتمدن الإسلامى يكذب هذا الزعم . فما حدث فى اللغة

العربية من تطور ونمو وتوسع اقتضته الحضارة ، وما تولد فيها من ألفاظ بعد الإسلام ، شيء مشهور لا سبيل إلى إنكاره ، وقد تم ذلك لها بالاشتقاق والتوليد ونحوهما ، ومعظم هذه الأصول ابتكرها القرآن ، وجارته في ابتكاره السنة ، وقاس عليهما المؤلفون . وقد أحصيت العلوم والفنون والآداب والصناعات التي استحدثت عند العرب في عصر ازدهار حضارتهم ، فزادت على ثلاث مئة عداً ، بينها كثير مما لم يهتد إليه أهل التمدن الحديث إلا بعد أن نضج تمدنهم في القرن التاسع عشر ، كالسياسة المدنية والسياسة الشرعية ، والأخلاق ، وتدبير المنزل ، والاقتصاد السياسي ، والعمران ، وفنون الحرب وآلاتها ونحو ذلك من مبتكرات العقل التي جالت فيها أقلام القوم ، وأتت منها بالبدائع والروائع ، وهي مظهر الحضارة والتمدن . . . فكم تقاضى كل هذا اللغة العربية من مادة ، وكم نشأ فيها بهذه الوسائل من الألفاظ التي بنيت على التمدن كما بنى عليها التمدن وسارا معاً إلى الغاية القصوى من آماد الحياة !

في نطاق هذا التفكير العلمي الواسع ، تنور الألوسي بألمعيته روح العصر وما تستقبل اللغة العربية من أحوال متطورة وحياة نامية للعرب تقتضيها المسايرة والاستجابة بعدما منيت به من ركود وجمود إثر زوال سلطان العرب السياسي واستعجام الحكم وفساد الحياة .. فالتفت ذهنه إلى خصائصها وحيويتها الطبيعية الكامنة في هذه الخصائص ، وأمعن في دراستها ، وخص بعضها بالتأليف ، واتخذتها حجته الداحضة لمزاعم الشعوبيين حين عنفوا في هجومهم على اللغة العربية واتهامهم إياها بالعقم والقصور .

(د) أن هذه الألمعية قد مدت أمام الألوسي آفاق اللغة ، ووسعت أنظاره فيها ، وأبعدت رحلته إلى جوانب منها متعددة يسرت له حظاً عظيما من إدراك جوهرها الأصيل ، فمارس قضاياها (كُلاً) بجميع وسائلها ومقوماتها من العلوم والفنون ، من نحو وصرف ووضع واشتقاق وبلاغة وفقه لغوي ، إلى ماتتطلبه من نظر منطقي فلسفي وعقل فاحص ناقد ، ولم يمارسها (بعضاً) كما

يفعل معظم الموسومين بعلم اللغة لعهدنا حين يقتصرون على متنها ، ويشتغلون بمفرداتها ويتناقلونها كالببغاوات ، أو ينقلونها من وعاء قديم إلى وعاء جديد ، فيسمون أوعيتهم معجمات ، فان ذلك جهد قاصر ، لا يتجاوز العلم به الرواية إلى الدراية ، والرواية مهما اتسعت غير مغنية فى هذا العصر الذى اختلفت متطلباته عن متطلبات العصور الوسطى أو عصور الاستعجام ، وهى لا تهدى إلى عبقرية اللغة ، ولا تحقق فوزاً للغة ، ولا تنيلها مكسبا من مكاسب النماء والازدهار . ولعل من يحفظ (لسان العرب) هذا المعجم ذا الأجلادالعشرين الضخام ، ويقف حظه من اللغة عند حفظ متنه لا يصنع شيئاً غير أنه يزيده نسخة توفر له شيئا من مكسبه المادى ، ولكنها (أى النسخة) لا تزيد اللغة ثمنا . . له قدر فى حساب معارف العصر ومتطلباته .

إن العلم بالمفردات يغنى ويفيد أكبر المكاسب للغة حين يسنده حس لغوى عميق وتؤازره عناصر شتى من الفقه والذوق والأدب الأصيل والإحاطة بعلوم اللسان .

* * *

نخلص من هذا التوضيح لوجهة الألوسى العامة فى دراساته اللغوية كما استنتجناها منها ، إلى المباحث التى عالجها : نتبينها ، ونستوضح منها آراءه فى اللغة وماكان لهذه الآراء من آثار فى عمله اللغوى .

(١) الاوضاع الحديثة فى اللغة العربية :

من المسائل اللغوية التى عالجها الألوسى ، وكان له فيها رأى ، مسألة الأوضاع الحديثة فى اللغة العربية ، أو مسألة قدرة اللغة العربية على التطور وعلى مجاراة الحضارة وامدادها بما تحتاجه من ألفاظ .

وهى مسألة عرض لها الشك من بداية عهد محمد على بمصر . وقد كان هذا العهد عهد الترجمة فى ميادين الطب والطبيعيات والرياضيات والعلوم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، وهى علوم زخرت بالمصطلحات زخوراً عظيما تكا أدالقائمين بالترجمة أن يطوعوه باللغة العربية ، إذ كانوا قوماً من نازلة اللبنانيين والمغاربة والأروام بمصر ، قل نصيبهم المفروض فى اللغة العربية كما قل نصيبهم من هذه العلوم أنفسها ، جىء بهم حين عزّ غيرهم فى بداية عهد النهضة والاتصال بالغرب وحضارته وعلومه ليكونوا فى المعاهد المصرية وسطاء بين الأساتذة الأفرنج والطلاب المصريين فى ترجمة هذه العلوم تلقيناً ثم تدوينا . وقد تخيل هؤلاء المقدرة فى أنفسهم والعجز فى اللغة العربية حين ضاقوا بالترجمة ذرعاً ولم يجدوا من ضعفهم عونا عليها ، فاتهموا اللغة العربية بالضيق والقصور ، وأذاعوا قالة السوء فى حقها ، وصادف ذلك مثله من العناصر الكارهة للعرب ومن التجار المتصلين بالغرب المتهالكين على اللغات الأفرنجية لتيسير تعاملهم بها ومن النابتة المتعلمين فى المدارس الأجنبية ونحوها المزورين عن العرب والعربية ، وتأثر هؤلاء — بالعدوى — أناس كثير من أبناء العرب أنفسهم ليسوا على شاكلتهم فى صفة من هذه الصفات .. وإذا اللغة العربية فى زعم هذه المخلوقات جميعا لغة قاصرة ، لا تصلح للحضارة ، وليس لها مكان للاستعمال فى هذا العصر الحديث .

هذه القالة المنكرة انتقلت إلى العراق على عهد الألوسى كما ينتقل الوباء

من قطر إلى قطر آخر حين تغفل الوقاية ، ولا تقام أسبابها حواجز وسدوداً من دونه ، على حين لم يكن فى العراق يومئذ أثر للاشتغال بالترجمة من اللغات الافرنجية إلى اللغة العربية . لكنها عدوى الدعايات . . أول صرعاها الضعاف المقلدون ، وهم بين غافل يؤمن بكل ما يلقى إليه ولا يتبين بواعث ما يقال له ، وجاهل لاحظ له من الثقافة العربية وما كان أكثرهم فى ذلك العصر التركى فى العراق ، كالوباء أول ما يتعرض له الجسم الضعيف الذى فقد المنعة وعجز عن المقاومة فنفذ إليه الداء .

وإنا لنجد الألوسى حين تتأدى إليه هذه القالة يُعنى بأمرها ، ولا يدعها تتفشى بين المتعلمين ، فينقدها ، ويضع لها الحلول .

فهو يقول : لقد سمعت بعض من لا خلاق (١) له من الناس أنه ادعى أن لغات الأفرنج اليوم أوسع من لغة العرب ، بناء على ما حدث فيها من ألفاظ وضعوها لمعان لم تكن فى القرون الخالية والأزمنة الماضية ، فضلا عن أن تعرفه العرب فتفوه به ، أو تتخيله فتنطق به » (٢) .

ويعلل منشأ هذ الزعم بأنه الجهل بفنون اللغة العربية : « ولا يخفى عليك أن هذا كلام يشعر بعدم وقوف قائله على منشأ السعة ، وأنه لم يخض بحار فنون اللغة حتى يعلم أن المزية من أين حصلت (٢) » .

ويرد الألوسى على هذه الدعوى بأن « ما ذكر من أن المفردات العربية غير تامة ، بالنظر إلى ما استحدث بعد العرب من الفنون والصناعات مما لم يكن يخطر ببال الأولين ، هو غير شين على العربية ، إذ لا يسوغ لواضع اللغة أن يضع أسماء لمسميات غير موجودة » ، ويجعل « الشين على من يستعير هـــذه

---

(١) الخلاق : النصيب الوافر من الخير

(٢) بلوغ الأرب ٤٤/١

الأسماء من اللغات الأفرنجية مع القدرة على صوغها من لغتنا ، لا على اللغة ، للسبب المنطقى الذى ذكره .

ووسائل الألوسى فى حل المشكلة ، هى :

١ — الاشتقاق — فهو يقول : « إن أكثر هذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان أو الآلة . وصوغ اسم المكان والآلة فى اللغة العربية مطرد من كل فعل ثلاثى . فما الحاجة إلى أن نقول فبريقة أو كرخانة ولا نقول معمل أو مصنع ؟ أو أن نقول بيمارستان ولا نقول مستشفى ؟ أو نقول ديوان ، ولا نقول مأمر ؟ أو نقول أسطرلاب ولا نقول منظر ؟ » .

ويقول : « ولو أن العرب الأولين شاهدوا البواخر وسكك الحديد وأسلاك التلغراف والغاز والبوستة ونحو ذلك مما اخترعه الأفرنج ، لوضعوا له أسماء خاصة ناصه ، فهم على هذا غير ملومين . وإنما اللوم علينا حالة كوننا قد ورثنا لغتهم : وشاهدنا هذه الأمور بأعيننا ولم نتنبه لوضع أسماء لها على النسق الذى ألفته العرب ، وهو الإيجاز والاختصار » (١) .

وللالوسى بحوث جميلة فى اختصارات العرب وإيجازها ، ليس هذا موضعها

٢ — الترادف — وهو ما يقابل الألفاظ الأعجمية من الألفاظ العربية ويريد به الترجمة اللفظية .

وغايته من هذا أن يطرد عادية (الدخيل) العجمى الذى يراد فتح باب الهجرة له إلى باحات اللغة العربية من غير قيد ولا شرط ، وهو استعمار لغوى يأباه أهل الحفاظ على القومية العربية كما يأبون الاستعمار بجميع أنواعه وأسمائه .

---

(١) بلوغ الأرب ١/٤٤ ، وهو يشترك فى هذه الآراء مع معاصره أحمد فارس الشدياق ، ولا أدرى أيهما الأسبق .

على أن الألوسى يقبل هذا فى أضيق حدوده ، ويغضى عن الدخيل إذا لم يوجد فى أصل اللغة ما يرادفه ، أو لم يمكن صوغ مثله .

فهو عنده ضرورة تقدر بقدرها ، وفى هذا يقول : « وإذا اعترض أحد بأن دخول الألفاظ الأعجمية فى العربية غير منكر ، وأن كل لغة من اللغات لا بد أن يكون فيها دخيل ، فاللغة هى بمنزلة المتكلمين بها ، فلا يمكن لأمة أن تعيش وحدها من دون أن تختلط بأمة أخرى ، فإن الإنسان مدنى بالطبع ، أى محتاج فى تمدنه إلى الاختلاط مع أبناء جنسه .

فالجواب أن هذا الدخيل إنما يغضى عنه إذا لم يوجد فى أصل اللغة ما يرادفه أو لم يمكن صوغ مثله .

فاما مع وجود هذا الإمكان ، فالإغضاء عنه بخس لحق اللغة ، لا محالة وإلا لزم المستعربين أن ينطقوا بالباء أو الكاف الفارسيتين ، أو أن يقدموا المضاف إليه على المضاف » (١) .

٣ — النحت — ويقول : (وهناك وجه آخر فى العربية لصوغ ألفاظ تسد سدّ الألفاظ الأعجمية التى اضطررنا إليها ، وهو باب النحت) .

وينقل عن ابن فارس فى (فقه اللغة) أن العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة ، وهو جنس من الاختصار ، وذلك كقولهم رجل عبشمى منسوب إلى اسمين وهما عبد شمس ، والحيعلة من قولهم حى على كذا .

ومذهب ابن فارس أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد ضبطر من ضبط وضبر ، وقولهم صهصلق من صهل وصلق ، وصلدم من صلد وصدم ، وغير ذلك كثير .

ويجتزىء الألوسى من النحت بهذا القدر فى بحث هذه المسالة ، اكتفاء بدلالته على وظيفته .

---

(١) بلوغ الأرب ١/ .

وقد رأيته أولى هذا البحث عناء أكبر من بعد ، لخفاء مسالكه ، فألف فيه رسالة ساعرض لها بعد هذا .

هذه هى وسائل الالوسى فى علاج هذه المشكلة التى نجمت فى هذا العصر ، درأ بها عن اللغة العربية تهمة العجز والقصور ، وحقق بتوجيهه الناس إلى اصطناع هذه الوسائل القديمة فى اللغة العربية النصر الدائم لها فى الميدان العلمى اللغوى ، ميدان ابتكار الأوضاع اللغوية الحديثة وتوليدها من صميم كلام العرب .

٢ — رأينا فى المسألة السابقة أن الألوسى قد عرض لمسألة النحت عرضاً خاطفاً ، اجتزاء بدلالته ، وذكرنا أنه ألف فيه رسالة من بعد ووعدنا أن نعرض لها ، إذ كانت من صميم بحوثه اللغوية الدالة على براعته فى تخيّر الموضوعات المفيدة المرجوّة أن يكون لها أثر محمود فى ترقية اللغة العربية وزيادة ألفاظها ومصطلحاتها .

وهو قد كتب هذه الرسالة فى سنة ١٣١٦ هـ ، أى بعد انقضاء زهاء أربعة عشر عاماً على معالجته مسألة الأوضاع اللغوية الحديثة كما عرضناها ، فكأنه شعر أن هذا الموضوع الحيوى لا يزال غامضاً فى أذهان الناس ، ولا سيما المشتغلين بالأوضاع اللغوية ، وأنهم محتاجون إلى توضيحه وشرحه بالأمثلة ليقاس عليها الجديد .

والنحت كما روى الألوسى من كلام ابن فارس جنس من الاختصار . . غير أن الألوسى فى هذه الرسالة لا يقف عند هذا الوصف الغامض ، بل هو يبسطه بسطاً ، ويبحث مسالك العرب فى إيجاز الكلام واختصاره ، ويرد ذلك إلى حدة أذهانهم وجودة أفهامهم ، وأنهم يتنبهون للرمزة الدقيقة ، وينتقلون للإشارة اللطيفة ، فلذلك كان كلامهم مشحونا من أنواع الإيجاز

والاختصار ، والحذف والاقتصار . ويذكر هذه الأنواع نوعا نوعا بإيجاز ، ليقرر أن النحت أسلوب أصيل من أساليب العرب فى كلامهم ، وأنهم استعملوه واعتبروه فى كثير من الألفاظ التى يكثر ورودها فى كلامهم ومحاوراتهم . . وذلك بأن ينحتوا كلمة من كلمتين ، ولفظة من جملة ، طلبا للخفة والإيجاز .

ويخلص الألوسى من بحثه إلى نتيجتين :

(ا) أن النحت هو قسم من الاشتقاق الأكبر .

(ب) أنه قياسى مطرد .

وهو يوضح الشق الأول كما يأتى : « الاشتقاق على ثلاثة أقسام : أصغر ، وصغير ، وأكبر .

أما الأصغر ، فهو أن يؤخذ لفظ من لفظ ، مع اعتبار جميع الحروف الأصول للمأخوذ منه والترتيب ، كنَصَر من النَّصْرِ .

وأما الصغير ، وقد يسمى الكبير ، فهو أن يؤخذ لفظ من لفظ ، مع اعتبار جميع الحروف الأصول للمأخوذ منه دون الترتيب ، كجذب من الجبذ .

وأما الأكبر ، فهو أن يؤخذ لفظ من لفظ من غير أن يعتبر جميع الحروف الأصول للمأخوذ منه ، ولا الترتيب فيها ، بل يكتفى بمناسبة الحروف فى المخرج ومثّلوه بمثل نعق من النهق ، والحوقلة من جملة لا حولَ ولا قوة إلا بالله ، للدلالة على التلفظ بها .

وسمى الأول بالأصغر ، لأنه لا يحتاج إلى مزيد تأمل فى إرجاع فرع إلى أصله ، بل يكتفى فى معرفته أدنى الالتفات .

والثانى (يعنى الصغير) يحتاج إلى التفات أكثر من الأول .

وسمى القسم الثالث بالأكبر ، لأنه يحتاج إلى زيادة تأمل فى إرجاع الفرع

إلى أصله إذا لم توجد جميع الحروف الأصول للمأخوذ منه فى المأخوذ ، ولا الموافقة فى المعنى كما فى قسمى الأصغر والصغير ، بل يكتفى بالمناسبة فيه .

وهذه التعريفات للأقسام الثلاثة باعتبار العمل .

وإن عُرفت باعتبار العلم ، قيل : هو (أى الاشتقاق) أن تجد بين اللفظين تناسبا فى أصل المعنى والتركيب ، فترد أحدهما إلى الآخر ، فالمردود مشتق ، والمردود إليه مشتق منه .

فالنحت بأنواعه من قسم الاشتقاق الأكبر .

وإذا كان الأمر هكذا ، فهو إذن قياسى مطرد ، دل على ذلك كلام الأئمة أو لم يدل ؛ لأن الاشتقاق قياسى فى اللغة العربية .

لكن الألوسى نزاع إلى استقراء مدارك الأئمة السابقين وتسجيلها ، إن لم يكن ذلك للاعتبار ، فلتاريخ الفكر . وهى نزعة يحمد عليها ، لأنها تدل على التثبت وعلى الأمانة العلمية ، وهى حلية العلماء وشارة المحققين .

ثم هو يمضى فى بحثه فيورد طائفة من الألفاظ المنحوتة التى وردت فى كلام العرب ليقاس عليها ، ويعرض لألفاظ أخرى اختلف فيها هل هى منحوتة ، أو لا ؟ وهى ، كلمات كثيرة ، ذكر بعضها ، ليكون نموذجا لغيره ، مثل قولهم : رجل ويَسْلمَة ، ويالا ، وأحاد .

ثم هو يؤكد أخيراً شيوع النحت فى كلام العرب ببيان ما يشا كله فى الكتابة من الأمور الاصطلاحية ، التى جرى عليها العروضيون والمحدثون واللغويون وفقهاء المذاهب وغيرهم ، وهى تفوت الحصر ، وقسم منها كالنحت كما يقول .

بل هو فوق ذلك يعرض لِما عند الأمم من هذا ، ويحكى من طرائفه أن « لأهل الصين كتابة تسمى كتابة المجموع ، وهى أن تكتب كل كلمة على ثلاثة أحرف أو أكثر على صورة واحدة . ولكل كلام طويل شكل من الحروف المقررة بحيث يدل على المعانى الكثيرة ، حتى إنهم كتبوا فى صفحة

واحدة بهذه الكتابة ما لا يكفيه إلا نحو مئة ورقة بالكتابة المتعارفة » .
ثم يقول .

« وهكذا الحال لدى كثير من الأمم ، وذلك مما لا تخفى فائدته ، فإن فيه قصر مدة التحرير ومسافة الكتابة » .

كل هذا ونحوه من أجل أن يفتح الباب على مصراعيه للنحت ، تسهيلا للانتفاع به فى تكثير مواد اللغة التى تغنينا عن الدخيل .

والألوسى يدلنا بهذا ، وهو مثال يسير من معارفه اللغوية ، على إدراكه العميق لوظيفة اللغة فى الحياة ، كما يدلنا على حفاظه على حياة اللغة العربية وعلى مبلغ حظه من فقهها وسعة إطلاعه على مباحثها وحسن تهدّيه إلى العناصر الحية فيها .

٣ — ومن المباحث اللغوية المهمة ، التى اختصها الألوسى بعنايته ، مبحث (التضمين) . وهو قانون نحوى بلاغى ، دقيق الاستعمال والدلالة ، ووسيلة من وسائل التوسع فى أقيسة اللغة مع الايجاز والاختصار . ولعله مما تفردت به اللغة العربية دون سائر اللغات إذا جاز لنا التعميم .

لكنه قصر تطبيقه على النصوص البليغة القديمة ، وأغفل فيما عداها . وهو حرى أن يفيد اللغة فوائد عظيمة فى توسيع المعانى مع الإيجاز ، وأن يحسم كثيراً من أسباب النزاع بين الأدباء والنقاد اللغويين فى أهم مسائل اللغة العربية ، وهى مسألة اللزوم والتعدية .

ومسائل التضمين التى حددها الألوسى ، هى :

(ا) حقيقة التضمين ، وأنواعه فى مصطلح العروضيين والأدباء والنحويين والبيانيين .

(ب) أقياسى هو أم سماعى ؟

(ح) كيفية دلالته .

(د) مباحث تتعلق بالمعمول من حيث الذكر والحذف، والتقديم والتأخير .

(هـ) فائدة التضمين ، وشواهده ، وأمثلته .

ونعرض الآن لموقف الألوسى من هذه المسائل ، وسأقتصر على بعضها دون بعض ، قصداً إلى تعيين الغاية والكشف عن فائدة هذا القانون .

١ — نقتصر على التضمين النحوى ، لأنه هو المقصود بالذات ، ونمثل له بما يبين أثره فى المعانى والمقاصد وما يترتب عليه من فوائد .

والألوسى يذكر أن للتضمين النحوى عند النحاة استعمالين : أحدهما دلالة الاسم بالوضع على معنى حقهُ أن يدلّ عليه بالحرف ، كأسماء الشرط والاستفهام وأسماء الموصول ، وهذا أحد علل بناء الأسماء ، فيقولون بنيت « حيثُ » الشرطية لتضمنها معنى « إن » أى أنها تضمنت مع معنى الظرفية الموضوعة ، معنى آخر جزئياً ، حقه أن يؤدى بحرف ، وهو الشرط المؤدى بلفظ « إن » . ويقول : إنه فصل ذلك فى شرح منظومة العطار فى علم الوضع .

والآخر ، وهو المقصود هنا بل بيت القصيد من نظم عقود هذه الرسالة كما يقول الألوسى ، اجراء أحكام لفظ على آخر ليدل على معناه . وقد عرفه بأنه إشراب لفظ معنى لفظ آخر ، ليعطىُ حكمه . وهو يقول فى شرح هذا « قولنا (أحكام لفظ) أعم من الفعل ومن التعدية وغيرها » لأنه قد يكون فى الأسماء . ومن اقتصر على الفعل ، جرى على الغالب » .

ويمضى فيذكر ما يورَدُ على هذا التعريف وغيره من اعتراضات وردود ، ويخلص من ذلك كله إلى موافقة ابن جنى فيما ذهب إليه من أن الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر ، فإن العرب قد تتوسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل فى معنى ذلك الآخر ، فلذلك جىء معه بالحرف المعتاد مع ما هو فى معناه . وذلك كقوله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وأنت لاتقول رفثت إلى المرأة ، وإنما تقول رفثت بها ، أومعها ،

لكنه لما كان الرفث هنا فى معنى الإفضاء ، وكنت تعدّى أفضيت بـ « إلى » كقولك أفضيت إلى المرأة ، جئت بـ « إلى » مع « الرفث » ايذاناً وإشعاراً بأنه بمعناه .

ويذكر الألوسى فى موضع آخر من كلام ابن قيّم الجوزية أن ظاهرية النحاة فى هذا ونحوه من الاستعمالات ، يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر ، كما يجعلون « فى » بمعنى « على » . وهو يعنى بظاهرية النحاة ، نحاة الكوفة ، وهم يرون أن المعنى الملحوظ غيرَ الوضعى غير مستفاد من توسع فى الفعل أو مشتقه ، بل مستفاد من أن بعض حروف الجر ينوب عن بعض بطريقة الوضع ، أى أن الحرف موضوع لأكثر من معنى واحد ، فيؤوّلون ما كان لازماً فتعدى بنفسه مثل « رحبتكم الدار » أو متعديا بحرف واستعمل متعديا بنفسه مثل « تمرّون الديارَ » ، بالضرورة ، أو الشذوذ ، ويجعلون (التضمين) من باب الشذوذ وإن كثر وقوعه فى الكلام ، كقوله تعالى : ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، فهم يقولون إن « فى » هنا بمعنى « على » .

وأما فقهاء أهل العربية — يعنى نحاة البصرة — فلا يرتضون هذا المذهب ، بل يجعلون للفصل معنى مع الحرف ومعنى مع غيره ، فينظرون إلى الحرف وما يستدعى من الأفعال ، فيشربون الفعل المعدّى به معناه .

هذه طريقة سيبويه ، وطريقة حُذّاق أصحابه ، يضمنون الفعل معنى الفعل ، لا يقيمون الحرف مقام الحرف .

وهى قاعدة شريفة ، جليلة المقدار ، تستدعى فطنة ولطافة فى الذهن . وهذا نحو قوله تعالى « عينا يشرب بها عباد الله » ، فانهم يضمنون « يشرب » معنى « يروى » ، فيعدونه بالباء التى يطلبها ، فيكون فى ذلك دليل على الفعلين . أحدهما بالتصريح به ، والآخر بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذى يقتضيه مع غاية الاختصار . وهذا من بديع اللغة ، ومحاسنها ، وكمالها .

ومن الأمثلة التي توضحه أتم توضيح ، فعل الهداية ، فهو يتعدى بنفسه تارة ، وبحرف « إلى » تارة ، وباللام تارة ، والثلاثة في القرآن .

فمن المعدى بنفسه : « إهدنا الصراط المستقيم » « ويهديك صراطاً مستقيماً ومن المعدى بـ « إلى » . « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » « قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم » ، ومن المعدى باللام . « الحمد لله الذي هدانا لهذا » « إنّ هذا القرآن يَهدى للتي هي أقوم » .

ويروى الألوسى عن ابن قيم الجوزية أن الفروق بين هذه المواضع تدق جداً عن أفهام العلماء ، ويذكر لها قاعدة تشير إلى الفرق ، وهي . أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لا بدّ أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر ، وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف . فإن ظهر اختلاف الحرفين ، ظهر فرق ، نحو : « رغبت فيه » و « رغبت عنه » ، و « عدلت إليه » و « عدلت عنه » و « ملت إليه » و « ملت عنه » و « سعيت إليه » و « به » . وإن تقاربت معاني الأدوات ، عسر الفرق ، نحو : « قصدت إليه » و « قصدت له » ، و « هديته إلى كذا » و « هديت لكذا » .

ففعل الهداية متى عدى بـ « إلى » تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة ، فأتى بحرف الغاية . ومتى عدى باللام ، تضمن التخصيص بالشيء المطلوب ، فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين ، فإذا قلت « هديته لكذا » أفهمَ معنى : دخرته له ، وجعلته له ، وهيأته له ، ونحو هذا . وإذا تعدى بنفسه ، تضمن المعنى الجامع لذلك كله ، وهو التعريف والبيان والإلهام .

فالقائل إذا قال « إهدنا الصراط المستقيم » ، وهو طالب من الله أن يعرفه اياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه ، فيجعل في قلبه علمه وارادته والقدرة عليه ، جرّد الفعل من الحرف ، وأتى به مجرداً معدى بنفسه ، ليتضمن هذه المراتب كلها .

ولو عُدّى بحرف ، لتعيَّنَ معناه وتخصص بحسب معنى الحرف . ودعا إلى تأمل هذا ، لأنه من دقائق اللغة وأسرارها .

(ب) أقياسى هو أم سماعى ؟

يقول الألوسى : اختلف فيه ، ويذكر ثلاثة مذاهب فى ذلك .

الأول « القياس » ، ويروى فى هذا عن كتاب التعرّف فى الأصلين والتصوف وشرحه قلائد الدرر : أن دلالة حرف على معنى حرف آخر مذهب كوفى ، وجعله البصريون من تضمين عامله ما يصلح معه معناه حقيقة ، لأن التصرف — وهو التجوز فى الفعل عندهم ، أسهل منه فى الحرف . وبعضهم يؤوله تأويلا يقبله اللفظ ، والتضمين هنا قياسى ، وهو ما عليه الأكثرون .

وضابطه أن يكون الأول والثانى يجتمعان فى معنى عام ، كما قاله المرادى فى تلخيصه . فإن كان سماعيا ، فلا مزية له على إنابة حرف عن حرف ، لكون كل منهما غير قياسى . وكون التصرف فى الفعل أسهل ، لا يقتضى التضمين المطلوب هنا لإخراج الكلام عن كونه غير قياسى .

كذلك يروى عن ابن هشام أنه نقل فى تذكرته أن قوماً من المتأخرين ، منهم أبو الخطاب المازنى ، جعلوه قياسياً .

الثانى « سماعى » ، وقد روى من حجة الذاهبين إليه أن قياسيته تؤدى إلى عدم ضبط معانى الأفعال .

الثالث « مذهب التوفيق » ، وقال فى هذا : ومن الناس من ادعى التوفيق بأنه بحسب الأصل لا يقاس عليه . لكنه لما كثر ، قيس عليه ، كما ذكر فى الأصول : أن الرخص لا يقاس عليها ، فإذا شاعت قد يقاس عليها .

والألوسى بعد أن يستوعب أطرافاً من أقوال المتنازعين فى المسألة ، على جارى عادته ، يعين موقفه من هذا النزاع فى صراحة ، ويقرر أن التضمين يجب أن يكون قياسياً ، ويقول :

« وعندى أن المقيس وغير المقيس إنما يعلمان بالكثرة والقلة . وقد سمعت ما قال ابن جنى إنه لو جمعت تضمينات العرب لاجتمعت مجلدات . فإذا كان الأمر كذلك ، لم تبق شبهة فى أنه قياسى . إذ السماع لا يكون من الكثرة إلى هذا الحد » .

شبهة

ولا شك أنه لا بدّ لهذا من ضابط يقيده . وهو قد نقل من كتاب التعرف أن ضابطه أن يكون الأول والثانى يجتمعان فى معنى عام ، يعنى كما يجتمع « شرب » و « روى » و « شارب » و « راو » مثلا .

والألوسى ينظر فى قراره هذا إلى اللغة العربية نظرة المتفهم لأسرارها، ويريدها أن تكون أداة صالحة للنمو والتوسع ، قادرة على التطور ، لا تستعصى عليه ، ووافية بما يراد من تنويع التعبير عن المعانى والخواطر وهى متجددة ولا متناهية فى حياة الفكر .

٤ — وعالج من القضايا اللغوية أصلا مهما يصار إليه فى اثبات ألفاظ اللغة ، وتقرير الأصول النحوية بالشاهد . وهو الجزئى الذى يذكر لإثبات القاعدة ، كآية من التنزيل ، أو قول من أقوال العرب الموثوق بعربيتهم . وهو غير المثال ، أى الجزئى الذى يذكر لإيضاح القاعدة وإيصالها إلى فهم المستفيد ولو بمثال جعلىّ .

والفرق بينهما بالعموم والخصوص من وجه ، فإن كل ما يصلح شاهداً ، يصلح مثالا ، من غير عكس كلى ، إذ لا يلزم أن يكون الجزئى مذكوراً بعد الحكم الكلى ، فضلا عن كونه مثالا أو شاهداً . فكونه مذكوراً للإيضاح أو للاثبات عارض مفارق لا يمكن اعتباره فى حقيقتهما . ولو اعتبر ذلك فربما يتباينان ، وربما يتصادقان ، فبينهما على هذا التقدير تباين جزئى .

وهذه القضية على وضوح ظاهرها ، هى على جانب من الخطورة فى مجال النقد والتعارض عند أهل اللغة فيما يثور بينهم من نزاع على المفردات التى يستعملونها وقد يختلفون على صحتها ، فتحتاج إلى شاهد موثوق بعربيته يؤكد

صحتها ويثبته ، لتقوم الحجة ويسقط الخلاف ، ويتعين ما ثبت وروده عن العرب مما لم يثبت .

فلا بد إذن من تحديد النوع الذى يصح به الاستشهاد من كلام العرب فى هذا الموقف ، ومن رد النزاع إلى أصل يقف المتنازعون عنده ويسلمون به ليرتفع من بينهم النزاع ، وإلا نشأ خلاف جديد آخر وكانت الفوضى وانبهم وجه الحق .

والكلام العربى أنواع : نثر وشعر ، والنثر قرآن وحديث وخطب وأسجاع وكلمات مأثورة ومقالات ومقامات ، ومن هذا ماحفظ نصه وتواتر نقله بألفاظه وحروفه خلفاً عن سلف من غير أن يتطرق إليه نقص أو تحريف أو تصحيف وهو القرآن المجيد ، ومنه ما رُوِى فى أحيان كثيرة بمعانيه لا بألفاظه وهو الحديث النبوى ونحوه من كلام أهل الصدر الأول.

وكذلك الشعر قائلوه طبقات : جاهليون من أمثال شعراء المعلقات وغيرهم من شعراء الجاهلية ، ومخضرمون عاشوا فى الجاهلية والإسلام كلبيد وحسان والخنساء ، وإسلاميون عاشوا فى الإسلام إلى آخر العصر الأموى كجرير والأخطل والفرزدق ، ومُحدَثون أومولّدون جاؤوا بعدهم فى العصر العباسى كبشار بن برد وأبى نوُاس وابن الرومى وأبى تمام والبحترى والمتنبى والمعرى والرضى وغيرهم من الفحول وهؤلاء فيهم الأعجمى الأصل كالثلاثة الأول وفيهم العربى الخالص النسب .

فمن يحتج بكلامه من هؤلاء جميعاً ، ومن يترك الاحتجاج به ؟ وهل يقتصر على القرآن والحديث والشعر الجاهلى والإسلامى ، لأنها صدرت عن العرب قبل أن يسيل سيل العجمة ويطغى الفساد على السلائق العربية الموروثة ، ويترك كلام هؤلاء المحدثين فلا يستشهد به إطلاقا ، وهم ورثة اللغة عن السلف الأول، ومعظمهم على حظ من التحقق بعلومها ومتنها يرفعهم إلى مصاف الأئمة . أفلا ينبغى أن يجعل ما يقولونه بمنزلة ما يروونه ؟ ولم يعتد علماء البلاغة بما

يقولونه فيستشهدون به ويملؤون كتبهم من أشعارهم ؟ ويزوى اللغويون والنحاة عيونهم عن مقولهم ولا يرونه خليقاً بالاستشهاد به ؟

هذه قضايا متواشجة ، عالجها اللغويون قديماً ، وكانوا فيها على مذاهب شتى لم ينتهوا منها إلى وفاق على جميع تفصيلاتها .

وهى قد تبدو لأول وهلة مسألة سهلة هينة ، قليلة الجدوى ، وأحسب أن أحمد فارس الشدياق ، وهو من معاصرى الألوسى ، قد نظر إليها من هذه الزاوية فى كتابه « سر الليال فى القلب والإبدال ، فلم يعر الشواهد اهتمامه ، وقلل منها ما استطاع ، ولم ينقل من شواهد « الصحاح » الا ما كان غريبا فى بابه معللا مذهبه هذا بأن « الناقل الصدوق يصدق بغير شاهد » (١) .

وهذا مذهب فى التأليف لا ينازع من يختاره على سلوكه ، بيد أن سالكه لن يجد مفراً من اللجوء إلى الشواهد لتأييد نقله أو لفظه إذا أحرج عليه. وإذن فلا مناص من معالجة المسألة بتوضيح مخارجها ، وتقرير القواعد التى يصار إليها ويسلّم بها .

وقد فطن الألوسى لذلك مذ كان شاباً فى حدود السابعة والعشرين ، فعالج مسألة الاحتجاج بالحديث والشعر فى رسالة لطيفة ألمّ فيها بآراء أئمة العربية، وذكر ماتلاقوا عليه وافترقوا فيه ، وما احتج به كل فريق فى تأييد مذهبه ، ولم يعرض فيها للاستشهاد بالقرآن ، إذ لا مكان لبحث جواز الاستشهاد به وهو مرجع اللغة الأعلى كما هو مصدر التشريع الأول للإسلام ، وإليه والى كلام العرب الخلص استند علماء العربية فى إثبات ألفاظ اللغة وتقرير أصول النحو ، وإنما نصبّ جهده على مسألتين فقط : الأولى جواز الاستشهاد بالحديث أو منعه أو التوسط فيه بين الإجازة والمنع ، والثانية تحديد موقف علماء العربية من الشعر العربى فى عصوره كلها .

---

(١) سر الليال ٦٠٧ .

فذكر من الخلاف فى المسألة الأولى ثلاثة مذاهب : المذهب الأول إجازة الاحتجاج بالحديث فى اللغة . وعده المجيزون فى الأصول التى يرجع إليها فى تحقيق الألفاظ وتقرير القواعد . وممن عرف بهذا المذهب ابن خروف وابن مالك والرضى الاسترابادى . وذكر ابن الضائع الأندلسى أنّ ابن خروف كان يستشهد بالحديث كثيراً ، وقال : فإن كان على وجه الاستظهار بالمرويّ فَحَسَنٌ ، وإن كان يرى أن من قبله أغفل شيئاً كان يجب عليه استدراكه فليس كما رأى .

والمذهب الثانى منع الاحتجاج بالحديث فى اللغة . ومن القائلين به ابن الضائع وأبو حيّان ، وسندهما أمران . أحدهما أن الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبى — صلى الله عليه وسلم — وإنما رويت بالمعنى ، والآخر أن أئمة النحو الأولين المُسْتَقْرِين للأحكام من لسان العرب من بصريين وكوفيين لم يحتجوا بشىء منه .

قال الألوسى . وَرُدَّ الأول بأن النقل بالمعنى إنما كان فى الصدر الأول قبل تدوينه فى الكتب وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به ، فلا فرق . على أن اليقين غير شرط ، بل الظن كاف . وَرُدَّ الثانى بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به ، والصواب جواز الاحتجاج بالحديث للتحرى فى الضبط للألفاظ ، ويلحق به ما ورد عن الصحابة وأهل البيت .

والمذهب الثالث هو التوسط . وهو مذهب الشاطبى ، ورأيه أن الحديث على قسمين . قسم يعتنى ناقله بمعناه دون لفظه ، فهذا لم يقع به استشهاد أهل اللسان . وقسم عرف اعتناء ناقله بلفظه المقصود خاصة كالأحاديث التى قصد بها بيان فصاحة النبى — صلى الله عليه وسلم — ككتابه لِهَمْدَان وكتابه لوائل بن حجر والأمثال النبوية ، فهذا يصح الاستشهاد به فى العربية . ثم شرح الشاطبى الأسباب التى أنكر من أجلها على ابن مالك إثباته القواعد

النحوية بالألفاظ الواردة فى الحديث ، فقال . وابن مالك لم يفصل هذا التفصيل الضرورى الذى لابد منه ، وبنى الكلام على الحديث مطلقاً ، ولا يعرف له سلف إلا ابن خروف ، فانه أتى بأحاديث فى بعض المسائل ، حتى نقل عن ابن الضائع أنه قال . لا أعرف هل يأتى بها مستدلاً بها أم هى لمجرد التمثيل ؟ قال . والحق أن ابن مالك غير مصيب فى هذا ، فكأنه بناه على امتناع نقل الحديث بالمعنى ، وهو قول ضعيف .

وواضح أن الألوسى كان يذهب إلى المذهب الأول كما يدل على ذلك الرد الذى أورده على المذهب الثانى ، وهو الصحيح ، ولا شك أن كل ما صح فى كتب الحديث المشتملة على أقوال النبى والصحابة وأقوال بعض التابعين أحيانا أيضا ، وحررت ألفاظه ، سواء روى بلفظه أو بمعناه ، كان رواته عربا خلصا ، وكان النقل له فى الصدر الأول قبل فساد اللغة ، فإن لم تكن ألفاظه مما فاه به الرسول أو الصحابة أو التابعون ، ورواه الرواة العرب بألفاظهم ، فهم أنفسهم حجة فى اللغة ، لا معنى للنزاع فى ذلك ، وقد جرى العمل بمروياتهم دينا ، أفلا يجوز أن تكون لغتهم حجة فى إثبات لفظة أو تحرير قاعدة ؟ وفى كتب الحديث من ألفاظ الحياة ثروة عظيمة نفتقر إليها فى الاستعمال ولا بد من إحيائها وإدخالها فى معجمات اللغة ، فكيف يجوز التفريط بها وإضاعتها اتباعا لأوهام نفر من النحاة ؟ .

وأما الشعر ، فقد ذهب الألوسى إلى أن الطبقتين الأوليين ، أى الجاهليين والمخضرمين ، يستشهد بشعرهما فى جميع علوم الأدب ، أى اللغة والصرف والنحو والمعانى والبيان والبديع وغيرها ، بالإجماع . وأما الثالثة أى الإسلاميون فقال . الصحيح صحة الاستشهاد بكلامها ، ولم يأبه لتلحين أبى عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبى إسحاق والحسن البصرى وعبد الله بن شبرمة للفرزدق والكميت وذى الرمة وأضرابهم ، وأنهم كانوا يعدونهم من المولدين ، لأنهم كانوا فى عصرهم ، والمعاصرة حجاب . وأما الرابعة فقال الصحيح أنه

لا يستشهد بكلامها مطلقا ، وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم ، واختاره الزمخشرى ، وتبعه المحقق الرضى ، فقد استشهد كل منهما بشعر المولدين ، ونقل من كلام الزمخشرى بعد ما استشهد ببيت من شعر أبى تمام قوله . هو وإن كان محدثا يستشهد بشعره فى اللغة ، فهو من علماء العربية ، فأجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه ، ألا ترى إلى قول العلماء . الدليل عليه بيت الحماسة ، فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه. قال: واعتُرض عليه بأن قبول الرواية مبنى على الضبط والوثوق ، واعتبار القول على معرفة اوضاع اللغة العربية والإحاطة بقوانينها ، ومن البيّن ان إتقان الرواية لا يستلزم إتقان الدراية . وفى الكشاف : القول دراية خاصة ، فهى كنقل الحديث بالمعنى . وقال المحقق التفتازانى . القول بأنه بمنزلة نقل الحديث بالمعنى ، ليس بسديد ، بل هو بعمل الراوى اشبه ، وهو لا يوجب السماع إلا من كان من علماء العربية الموثوق بهم ، فالظاهر انه لا يخالف مقتضاها . فإن استؤنس به ولم يجعل دليلا ، لم يرد عليه ما ذكر ، ولا ما قيل من انه لو فتح هذا الباب لزم الاستدلال بكل ما وقع فى كلام المحدثين كالحريرى وأضرابه ، والحجة فيما رووه لا فيما رأوه. وقد خطّئوا المتنبى وابا تمام والبحترى فى اشياء كثيرة كما هو مسطور فى شروح دواوينهم . وفى الاقتراح للسيوطى : أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين فى اللغة العربية ، وفى الكشاف ما يقتضى تخصيص ذلك بغير أئمة اللغة ورواتها ، فإنه استشهد بقول أبى تمام الطائى وأول الشعراء المحدثين بشاربن برد . وقد احتج سيبويه ببعض شعره تقربا إليه ، لأنه كان هجاه لتركه الاحتجاج بشعره . كذا نقل عن المرزبانى وغيره . ونقل عن ثعلب أنه نقل عن الأصمعى أنه قال : ختم الشعر بابراهيم بن هرمة ، وهو أحسن الحجج . وكذا عدّ ابن رشيق فى العمدة طبقات الشعراء أربعاً ، قال : وهم جاهلى قديم ، ومخضرم ، وإسلامى ، ومحدث . قال : ثم صار المحدثون طبقتين أولى وثانية على التدريج فى الهبوط إلى وقتنا هذا ، وجعل الطبقات بعضهم ستاً ، وقال الرابعة المولدون ، وهم من بعد المتقدمين كمن

ذكر ، والخامسة المحدثون وهم مَنْ بعدهم كأبى تمام والبحترى ، والسادسة المتأخرون وهم من بعدهم كأبى الطيب المتنبى ، إذ ما بعد المتقدمين لا يجوز الاحتجاج بكلامهم ، فهم طبقة واحدة . فلا فائدة فى تقسيمهم .

وقد وقف الألوسى من هذه الآراء موقف الناقل ولم يقطع برأى ، فهل الحجة فيما رواه هؤلاء المحدثون الذين ملكوا ناصية اللغة متناً وبياناً لا فيما رأوه وما سبب التفريق ؟ وهل وقوعهم فى الخطأ أحياناً يمنع من الاحتجاج بكلامهم ، والعرب الأوائل قد أخطأت قديماً فى أشعارها ، ورأينا الأصمعى وغيره يخطئون الفرزدق والكميت والأخطل ، واستوفى ابن فارس ما ذكرت الرواة أن الشعراء غلطوا فيه فى كتاب الخطأ فى الشعر وهو كتاب نقد الشعر ، وأحصى ابن دريد وابن جنى وأبو هلال العسكرى والسيوطى وغيرهم كثيرون ماوقع لشعراء الجاهلية من ذلك ومامنع ذلك من الاحتجاج بكلامهم، لأن العلماء يميزون بين ما صح من كلامهم وما لم يصح ، فما صح منه قبلوه ، وما أبته العربية وأصولها ردّوه ، فمن الحق أن يعامل المحدثون المتميزون بالتحقق بعلم اللغة معاملة هؤلاء ، فلا يمنع الاحتجاج بأشعار أمثال بشار وأبى نواس وأبى تمام مثلا إطلاقاً وهم فى الذروة من العلم بأصول اللغة ومفرداتها ، بل هم أعلم بها من شعراء الجاهلية أنفسهم وقد أحاطوا من اللغة بما لم يحط به أولئك . وأرى أن سيبويه كان على حق حين استشهد بشعر بشار فى اللغة كما يستشهد البلاغيون بكلام المحدثين فى المعانى والبيان والبديع ، ولست أرى فى زعم المرزبانى أن سيبويه احتج ببعض شعر بشار تقربا إليه حجة مقنعة ، وهو زعم يؤدى إلى اسقاط هذا التراث العظيم من أشعار المحدثين جملة ويجعل الاشتغال بها ضرباً من العبث ، لأنه يسقط الثقة بلغتها ، ولا يرى لها مزية الصحة ، فأى غناء لنا فيها إذن ؟ .

الحق أن الزمخشرى كان واعيا حين قرر الاستشهاد بكلام من يوثق بهم من هؤلاء المحدثين الكبار المجمع على جلال بيانهم وفحولتهم : ولكن لا بد

مع هذا من وضع قواعد تحدد وجه المشكلة صيانة للدراسات اللغوية من فوضى الانتشار والفساد ، وهو فى الحقيقة عمـــل من أعمال المجامع اللغوية لا الأفراد .

٥ — وعالج الألوسى من فنون العربية فنا يقال له الوضع ، درجت المدرسة العربية الإسلامية على الاحتفال له والتأليف فيه. وقد أولع به المؤلفون الأعاجم خاصة ، وقلدهم آخرون من غيرهم ، فتعمقوه ، وكتبوه بلغة مستعجمة أشد استعجام وأساليب ملتوية عويصة غامضة لا تكاد تبين ، حتى استحال إلى ألغاز ومعميات تعيي أذكى الأذكياء أن يفهم منها غرضا واضحا ومعنى مكشوفا .

وكان تدريس هذا الفن إلى عهد قريب « تقليداً » متبعا ، لا سبيل لأحد إلى إغفاله أو اطراحه . ومن فعل ذلك ، لا يسلم من تهمة العجز والقصور .

وقد علمت من صريح كلام الألوسى كما سيأتى اعتقاده قلة جدوى هذا الفن ، لكنه لم يجد بدا من انفاذ هذا التقليد العلمى المرسوم فى المدرسة العربية الإسلامية لعهده ، ومن قيامه بتدريسه .

وهو لم يكن ميسوراً له ادراك بغيته من هذه الكتب المدونة فى هذا الفن ، ولذلك وجد نفسه مضطراً ان يكتب فيه رسالة تخلص مباحثه من أثقال التعقيد والغموض وتقربها من الافهام .

وإلى عسر المؤلفات فى هذا الفن يشير فى مقدمة رسالته فيقول : « ورايت الكتب المؤلفة فى هذا الفن من مؤلفات الاعاجم ليس لها حظ من فصاحة الكلام ولا من اللفظ المنسجم ، لا تفهم منها المقاصد إلا بنظر بعيد ، ولا يكاد مضمونها يتبين إلا بعد الجهد الجهيد ، ومع ذلك فهى مملوءة من التشكيك ، مشحونة من الكلام المعقد الركيك ، حتى ان اكثر المشتغلين بها قد ابتلوا بالحرمان بعد ان صرفوا فى الاشتغال بها شطراً من الزمان » .

والحق أن من يوازن بين كتاب الألوسى وكتب هؤلاء فى معالجة هذا الفن ، يجده موفقا توفيقا محموداً فى محاولته تخليصه مما ران عليه من عجمة ومن تعقيد وغموض . ولكنه مع هذا لا أراه قد بلغ كل ما أراده من ذلك على نحو يلائم ثورته على المؤلفين فيه .

وسبب هـــذا واضح كل الوضوح ، وهو اضطراره عند الكتابة إلى الاستئناس بأصوله المدونة بأقلام أربابه هؤلاء ، وتعذر اطراحها جملة عليه ، فلم يكن بد من ظهور سمات منها عنده . فهو إن لم يستطع أن يعرب هذا الفن المستعجم تعريبا تاما ، وأن يجرده من أثوابه الكثيفة من تعقيد وركاكة وتشكيك تجريداً كاملا ، فحسبه أنه أصاب حظا من هذا وذاك ، وأنه كان ظاهر الاجتهاد والتحقيق فى مواطن عدة من مباحثه .

ولنستعرض الآن بعض آثار تجديده له ، ونذكر مثالا منه ، وهو ما يقال فى تعريفه وتحديده له وكيف أراد قبل كل شىء أن يعين غايته ويجعل حده حداً واحداً جامعا مانعا لا شركة فيه لحدود أخرى تفسده ، واضح المعالم ، مستقيما لا يتخيفه القلق والاضطراب .

فأول ما يبدأ بتعريفه ، يورد قول علماء الوضع فى حده : « علم الوضع أصول وقواعد باحثة عن أحوال اللفظ العربى من حيث الوضع ، وغايته معرفة الوضع » . ثم يروى عن كتاب مطالع العلوم أن المسائل المذكورة فى هذا الفن لها جهة وحدة تضبطها ، لأنها إما معرفة المفهومات الاصطلاحية لعدة من الألفاظ التى يحكم على مدلولاتها فى العلوم العربية ، وإما معرفة وضع ما يصدق عليه تلك المفهومات على وجه الإجمال ، فإنه يعرف منه مثلا أن كل اسم إشارة وضع للمشار إليه المشخص المعين بخصوصه أىّ مشار إليه كان . فإن كان الأول ، فهى من مبادىء العلوم العربية ، والقول بأنها من مبادىء النحو فقط مجرد تخصيص . وإن كان الثانى فهو بعض من علم متن اللغة بناء على أن متن اللغة وظيفته بيان معانى الألفاظ إجمالا وتفصيلا ، ومن مباديه بناء على أنه عبارة عن معرفة الأوضاع تفصيلا . فحده باعتبار الجهة الذاتية :

علم يبحث فيه عن اللفظ العربى من جهة وضعه بإزاء معناه بأحد أقسام الوضع المذكورة. أو علم يبحث فيه عن أوضاع الكلم العربية من جهة الخصوص والنوعيـــة والشخصية، إلى غير ذلك من عوارض الوضع. فموضوعه إما الموضوع أو الوضع نفسه، فإنه باحث عن لواحقها.

وباعتبار الجهة العرضية: هو علم يعرف به الفرق بين الألفاظ الموضوعة وأقسامُ الوضع المحتملة والواقعة، أو علم تعصم مراعاته المتكلم عن الخطأ فى استعمال الألفاظ فى معانيها.

وفائدته على هذا. العصمة المذكورة، وتمييز أقسام الموضوعات بعضها عن بعض، ولا مانع من تعدد الموضوع لعلم واحد، ولا من تعدد الغاية له كالطب. موضوعه الجسم، وتراكيب الأدوية الحافظة للصحة والجالبة لها، وغايته حفظ الصحة باقية واسترجاعها زائلة.

لكن الألوسى يستضعف هذا الاضطراب فى تعريف فن الوضع، وفى حده تارة باعتبار الجهة الذاتية، واخرى باعتبار الجهة العرضية، ويردّ الفن كله إلى طبيعة نشوئه وبواعث إفراده بالتأليف، مطرحا هذا وذاك، ومعينا هدفه فى جزم وتوضيح، ويقول: وعندى ان موضوع هذا العلم هو الوضع نفسه، لانه باحث عن تعريفه وتقسيمه، فإنه لما لم يتكلم عليه النحويون قصداً وبالذات، واخطئوا فى وضع بعض الالفاظ، افرده بالتأليف بعض المتأخرين، وتكلم على وضع جميع الالفاظ، فهو من متممات النحو واللغة، وكان لدى المتقدمين من بعض مسائل العربية.

ثم هو ينفى الفائدة من التوسع فيه، ويرى عقمه وقلة جدواه، فيقول بعد هذا الكلام الواضح الجميل:

وليس له فائدة يعتد بها، وحقه أن يكون بابا من فنون العربية، كالمباحث المستطردة فيها، مما لا يترتب عليها نفع دينا ولادنيا. والعلم — كما قيل — نقطة، كثره الجاهلون.

هذا المثال من طريقة الألوسى فى تذليل مباحث هذا الفن ، واجتهاده فى تعيين حده ، وبيان فائدته أو مكانه من فنون العربية ومبلغ ما يستحقه من العناية به .. يدلنا دلالة واضحة على ذهنية واعية وعقلية متحررة تنزع إلى الاجتهاد فى العلم كما تنزع إليه فى الدين والعقيدة ، وتأبى التقليد فيه كما تأباه فى الشرع .

* * *

هذا إلى قضايا لغوية مهمة اخرى ذكرناها فى الكلام على مؤلفاته ، واخطرها دراساته الصوتية وفتاواه اللغوية وبحثها يتطلب عدة محاضرات .

المطبعة الكمالية
حافظ على عبد الجواد وشركاه
٥٢ شارع على عبد اللطيف - عابدين

التصويب

ص	س	خطأ	صواب
٣	١٠	يعرّضها	يعرِّضها
٤	١٨	عل	على
٥	٢٣	التفرد	التفرد
٦	١٤	لاستبدادية	الاستبدادية
٩	٢٢	للولاء	الولاء
١٠	٣	كلّها	كلِّها
١١	٢	وأريافة	وأريافه
١١	١٤	فتعبير	فتعبير
١١	٢٣	واصطلاح	فاصطلاح
١١	٢٧	نزق	نزق
١٣	٨	ويشق	وتشق
١٣	١٠	الأراضي	الأرضين
١٥	١٤	المبتات	العتبات
١٨	٩	علومى	علوم
١٩	٢١	تنبّناه	تبنّناه
٢٢	٢٣	أيدهم	أيديهم
٢٤	١٩	تخبوا	تخبو
٢٥	١	وقفتَ	وقفتُ
٢٥	١٠	واحتضر	واختضر
٢٥	١٩	إطلاقة	اطلاقه
٢٦	١٣	وجرز	وجزر
٢٧	٦	بغداد ٦٥٦ ﻫ	بغداد سنة ٦٥٦ ﻫ
٣٥	١٠	الضاحك والباكى	الضاحك الباكى
٣٨	١٠	بين	فى
٣٨	٢٤	زوق	ذوق
٤١	١٠	والتألف	والتأليف
٤١	١٤	الأدبيه ثلاثة	الأدبية . وله ثلاثة
٤١	١٩	الحديثة	الحديثيّة
٤٢	٥	فرع	فرغ
٤٣	١٤	مولويه	مولوية
٤٤	٢١	حوزه	حوزة
٤٥	١٩	وتراهم	تراهم

ص	س	خطأ	صواب
٤٦	١٩	ودواينه	ودواوينه
٤٧	١٧	الامبراطورية	الانبراطورية
٤٩	٧	لا تغالبَ	لا تغالبُ
٥١	١١	وخوايتمها	وخواتيمها
٥٢	٩	تجديد	تجويد
٥٦	١١	بتلاميذيه	بتلاميذه
٥٩	٢١	ونبعوا	ونبغوا
٦٠	٢٣	حازة	حازه
٦١	٧	الاقتصاد	الاقتصار
٦٣	٢٠	وبيّان	وبيان
٦٨	٢٠	أرجوا	أرجو
٦٨	٢٣	والمرجوا	والمرجو
٦٩	٧	البغداى	البغدادى
٧٠	٥	أشيئا	أشياء
٧٠	١٤	لهتمه	لهمته
٧٠	٢٣	ترجمة	ترجمته
٧١	٥	الجائرة	الجائزة
٧١	٩	فوزة	فوزه
٧١	١٥	الظور	الظهور
٧٢	١٨	الرسمى . قول	الرسمى بقوله
٧٢	٢٢	الجائرة	الجائزة
٧٢	٢٢	مستحقها	يستحقها
٧٥	٥	وواحد	وواحداً
٧٦	١٠	كال	كان
٧٧	١٨	الامبراطورية	الانبراطورية
٧٨	١٣	الحزقة	الخرقة
٨٠	١٨	المنشخين	المتشيخين
٨٤	١٢	المحمودية	المحمدية
٨٤	١٧	قال	بقال
٨٥	١٠	بتطهيرها	إلا بتطهيرها
٩١	٦	اذ	اذا
٩١	٨	ومشاورتة	ومشاورته

تابع التصويب

ص	س	خطأ	صواب
٩١	٨	الشئون	الشؤون
٩١	١٠	وأوصاهم	أوصاهم
٩١	٢١	تتابعت هذه	تتابعت أحداث هذه
٩٢	٦	الذى	الذين
٩٨	٥	اللذات	اللدات
٩٨	٢١	نحيف	تحيّف
١٠٠	١١	حديثة	حديثه
١٠١	١٢	إل	الى
١٠١	١٥	وهو	هو
١٠٧	٦	له من	له ومن
١٠٧	١٧	هذ	هذا
١٠٩	٣	سابعة	سادسة
١١١	١	عداً	عدا
١١١	٣	أقسام	آقسام
١١١	١٥	كتاب	١ – كتاب
١١١	١٨	زَرْوٍ	ذَرْوٍ
١١٣	٢١	غلاة	غلاة الشافعية
١١٤	٩	وهذ	وهذا
١١٤	٢٢	عل	على
١١٨	٣	البصرة	فى البصرة
١١٩	٣ و ٤	الدخلية	الدخيلة
١١٩	٥	الداخلية	الدخيلة
١٢٠	١٤	عل	على
١٢١	١	بحيث	بحث
١٢١	٤	الثلاثة	الثلاث
١٢٢	٥	وما سماها ؟	وما مسماها ؟
١٢٥	١٢	نسخة	نسخه
١٢٦	٢٢	صيحة	صبيحة
١٢٦	٢٤	وأكلت	وأكملت
١٣١	٢١	استجمعت	استعجمت
١٣٢	١	تتال	تنال
١٣٣	٣	ورواتها	وروائعها
١٣٣	١٣	والتألف	والتأليف

ص	س	خطأ	صواب
١٣٤	٩	ويحدد	ويجدد
١٣٤	١٠	تطئن	تطمئن
١٣٤	١٩	النضيح	النضيج
١٣٥	٨	وللدارسين	وبالدارسين
١٣٦	١٨	وآتخاذها	واتخذها
١٣٩	١	تفعل	تغفل
١٤١	١٣	لصون	لصوغ
١٤١	١٧	سمين	اسمين
١٤١	٢٣	الأدب	الأرب
١٤٢	٣	وهذه هى رسائل	هذه هى وسائل
١٤٧	١٥	للفصل	للفصل
١٤٧	١٧	حُذاق	حُذّاق
١٤٩	٥	ويرون	ويروى
١٥٠	٣	شبهته	شبهة
١٥٠	١٤	كآبة	كآية
١٥١	٢٢	وضوع	وضوح
١٥١	٨	مآثورة	مأثورة
١٥١	٢٤	يردونه	يروونه
١٥٢	٣	وكانو	وكانوا
١٥٢	٩	بعير	بغير
١٥٢	٢٠	نصب	انصبّ
١٥٣	١٤	إثباب لفظه	إثبات لفظة
١٥٥	٤	فأجمل	فأجعل
١٥٥	١٩	تقريبا	تقريباً
١٥٥	٢٢	وكذ	وكذا
١٥٧	١٦	مباحثة	مباحثه
١٥٧	١٧	اتقال	أثقال
١٥٧	٢١	مضاها	معناها
١٥٧	٢٢	مشخونة	مشحونة
١٥٨	٤	بلائم	يلائم
١٥٨	١٤	يتخيّفه	يتحيّفه
١٥٩	١١	حفط	حفظ
١٥٩	١٦	فإن	فإنه



جامعة الدول العربية

معهد الدراسات العربية العالية

محمود شكري الألوسي

وآراؤه اللغويّة

محاضرات

ألقاها

الأستاذ

محمد بهجة الأثري

﴿على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية﴾

١٩٥٨

١٩٥٨